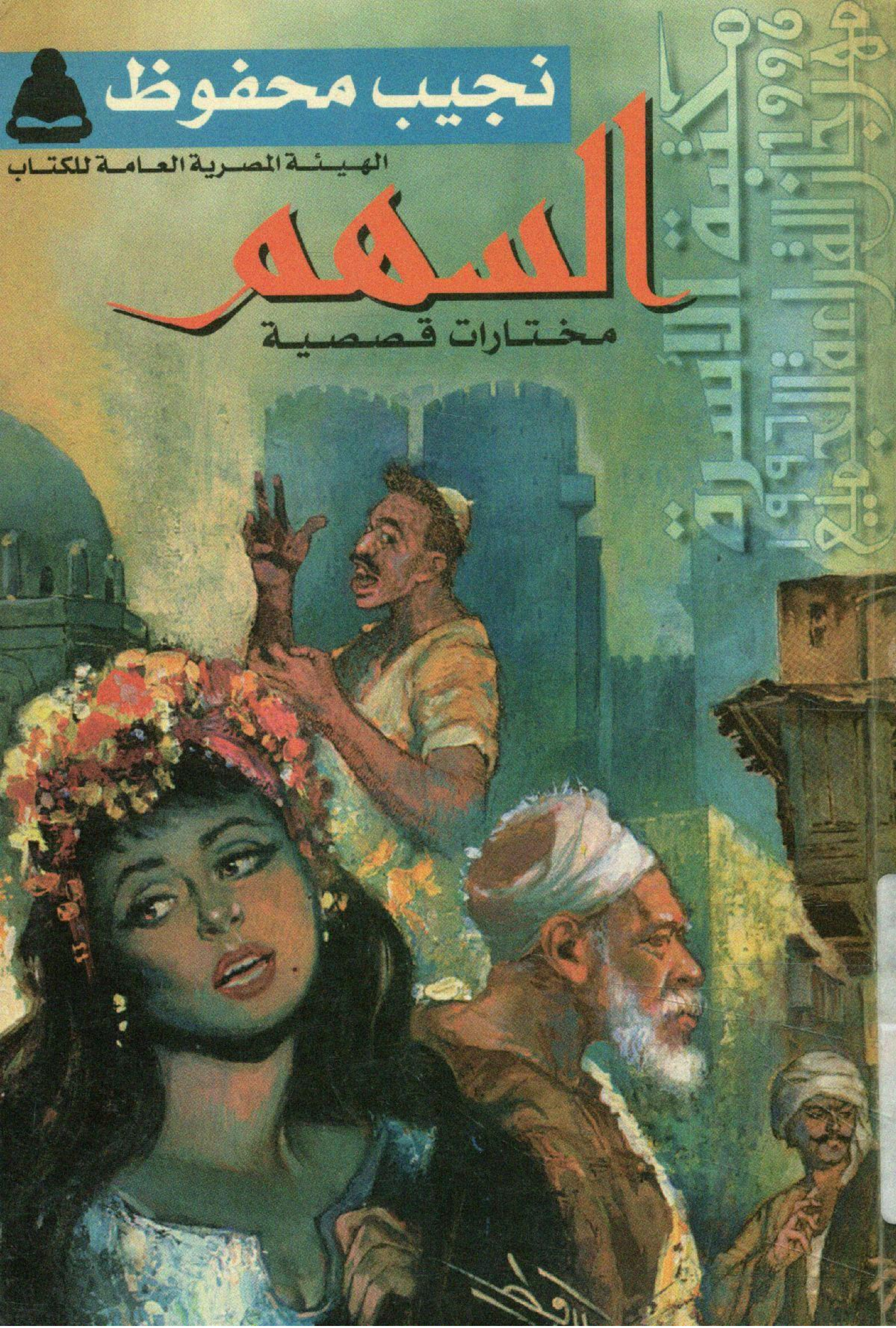

نجيب محفوظ
الهيئة المصرية العامة للكتاب
السهم
مختارات قصصية
مكتبة الأسرة
مهرجان القراءة للجميع ١٩٩٦

السهم
مختارات قصصية



مهرجان القراءة للجميع ٩٦

مكتبة الأسرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(الأعمال الإبداعية)

السهم
مختارات قصصية
نجيب محفوظ

الغلاف
للفنان جمال قطب

الانجاز الطباعى والفنى
محمود الهندى

الجهات المشتركة:

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية

وزارة الثقافة

وزارة الإعلام

وزارة التعليم

وزارة الحكم المحلى

المجلس الأعلى للشباب والرياضة

التنفيذ: هيئة الكتاب

المشرف العام

د. سمير سرحان

السهم

مختارات قصصية

نجيب محفوظ

على سبيل التقديم...

لأن المعرفة أهم من الثروة وأهم من القوة فى عالمنا المعاصر وهى الركيزة الأساسية فى بناء المجتمعات لمواكبة عصر المعلومات.. من هنا كان مهرجان القراءة للجميع دلالة على الرغبة الطموحة فى تنمية عالم القراءة لدى الأسرة المصرية أطفالاً وشباباً ورجالاً ونساءً..

وكان صدور مكتبة الأسرة ضمن مهرجان القراءة للجميع منذ عام ١٩٩٤ إضافة بالغة الأهمية لهذا المهرجان كأضخم مشروع نشر لروائع الأدب العربى من أعمال فكرية وإبداعية وأيضاً تراث الإنسانية الذى شكل مسيرة الحضارة الإنسانية مما يعتبر مواجهة حقيقية للأفكار المدمرة.

هكذا كانت مكتبة الأسرة نافذة مضيئة لشباب هذه الأمة على منافذ الثقافة الحقيقية فى الشرق والغرب وعلى ما أنتجته عبقرية هذه الأمة عبر مسيرتها التنويرية والحضارية..

إن مئات العناوين وملايين النسخ من أهم منابع الفكر والثقافة والإبداع التى تطرحها مكتبة الأسرة فى الأسواق بأسعار رمزية أثبتت التجربة أن الأيدى تتخاطفها وتنتظرها فى منافذ البيع ولدى باعة الصحف لهو مظهر حضارى رائع يشهد للمواطن المصرى بالجدية اللازمة والرغبة الأكيدة فى الإسهام فى ركب الحضارة الإنسانية على أن يأخذ مكانه اللائق بين الأمم فى عالم أصبحت السيادة فيه لمن يملك المعرفة وليس لمن يملك القوة.

وللعام الثالث تواصل مكتبة الأسرة إشعاعها الثقافى حيث تقدم هذا العام ١٧٢ كتاباً فى سبع سلاسل يصدر منها ما يقارب ١٨ مليون نسخة كتاب فى أضخم مشروع ثقافى قومى تشهده مصر الحديثة.

د. سمير سرحان

مقدمة

بقلم

محمد سلماوى



شرعت فى إعداد هذه المجموعة من القصص لكاتبنا الكبير **نجيب محفوظ** بعد أن وافق على إهدائها لمشروع **مكتبة الأسرة**، تصورت أننى - لكى أقدم جديد للقارئ - سأنتقى من بين أكثر من مائتى قصة قصيرة كتبها الأستاذ نجيب ما يوضح تطوره ككاتب منذ صدور مجموعته الأولى «**همس الجنون**» عام ١٩٣٨ وحتى المجموعة الأخيرة «**القرار الأخير**» **التى صدرت هذا العام** وكانت آخر ما كتب قبل أن يصاب فى

ذراعه اليمنى فى حادث الاعتداء الغاشم الذى تعرض له فى نوفمبر ١٩٩٤.

بهذا الهدف عدت إلى مجموعات القصص الخمسة عشر التى أصدرها الأستاذ وهى:

«همس الجنون» ١٩٣٨ - «دنيا الله» ١٩٦٢ - «بيت سئ السمعة» ١٩٦٥ - «خمارة القط الأسود» ١٩٦٩ - «تحت المظلة» ١٩٦٩ - «حكاية بلا بداية ولا نهاية» ١٩٧١ - «شهر العسل» ١٩٧١ - «الشيطان يعظ» ١٩٧٨ - «الحب فوق هضبة الهرم» ١٩٧٩- «رأيت فيما يرى النائم» ١٩٨٢ - «الجريمة» ١٩٨٢ - «التنظيم السرى» ١٩٨٤ - «صباح الورد» ١٩٨٧- «الفجر الكاذب» ١٩٨٩ - «القرار الأخير» ١٩٩٦.

وانفتح أمامى عالم نجيب محفوظ القصصى الثرى والذى هو كالكنز كلما عدت إليه متصوراً أنك عرفته من قراءة سابقة وجدت فيه الجديد من معان وأعماق وجوانب فنية لا تسلم نفسها للقارئ من أول قراءة وإنما هى تعطى من القيمة الفنية بعدد مرات قرائتها.

ووجدت نفسى فى حيرة !! فأين هو هذا التطور الفنى الذى تصورته ممتداً من أعمال نجيب محفوظ الأولى وحتى الآن ؟! إن أعمال المجموعة الأولى «همس الجنون» لا تقل براعة عن الأعمال التى تلتها بعدة عقود من الزمان ولاهى أقل نضجاً منها، صحيح أن قصص نجيب محفوظ قد اختلفت ما بين مرحلة وأخرى من حياته الأدبية فها هو هنا يهتم بالتصوير الواقعى للحارة المصرية فى حى الجمالية أما هناك فتستهويه الموضوعات الفلسفية التى تبحث كنه الحياة وكينونتها، ثم هو هنا يصور حياة الموظفين الكادحين وآمالهم التى طالما تحطمت على صخرة الواقع الرتيب الذى لاخروج من دائرته المفرغة وهناك يصور عالم الجريمة والتمرد على الواقع أو عالم الهذيان والهروب من هذا الواقع إلى عوالم خيالية أخرى، ولكن أى مدعى هذا الذى يمكن أن يقول أن ذلك يمثل تطوراً وارتقاء فى الفن الروائى لنجيب محفوظ ؟! إن العبقرية لا تخلق بالتدريج على مر السنين وإنما هى تولد فى المنشأ، أو لا توجد قط.

لقد استبعدت فكرتى الأولية التى أردت أن أبنى عليها اختيارى لقصص هذه المجموعة واستبدلتها بفكرة أخرى لا

تعتمد على تطور نجيب محفوظ وإنما على تطور المجتمع المصرى خلال فترة تزيد على نصف قرن منذ صدور المجموعة القصصية الأولى وحتى الآن.

وهكذا تجد - صديقى القارئ - مجتمع ما قبل الثورة مثلاً فى قصتى «**الزيف**» و «**مندوب فوق العادة**» حيث تصور الأولى حياة الترف والاستهتار فى مجتمع الباشوات والبكوات الذى يعتمد على الزيف فلا يلقى فى النهاية إلا زيفاً مثله. وحيث يقول الكاتب فى القصة الثانية بطريقة فنية ذكية إن من يتصدى لتغيير البيروقراطية والروتين الحكومى لابد أن يكون مجنوناً. كما تجد أنه فى أعقاب حرب ١٩٦٧ التى انكسر تحت وطأتها بعض الكتاب والفنانين بدأت فكرة العبث المتسلط على حياتنا تشاغل كاتبنا فصورها فى الكثير من كتابات هذه المرحلة وخاصة فى مسرحياته الخمس التجريبية العظيمة ذات الفصل الواحد، لكنه صور فى نفس الوقت النزعة الهروبية التى سيطرت على بعض قطاعات المجتمع كما يظهر فى قصة «**الظلام**» والتى تبدو وكأنها سيناريو مصغر لروايته العظيمة «**ثرثرة فوق النيل**». وما بين حرب الاستنزاف ووفاة جمال عبد الناصر عام ١٩٧٠

وقيام حرب أكتوبر المجيدة عام ١٩٧٣ شهدت مصر مرحلة اللاسلم واللا حرب فلم يفت كاتبنا الكبير تسجيلها كما فى قصة «أهلا»، وفى أكتوبر ١٩٧٣ تتحول الهزيمة إلى انتصار لكن اللصوص ينقضون على المجتمع الانفتاحى الجديد كما فى قصة «أهل القمة»، ويبقى الشباب ضائعاً مابين الحلم القديم الذى اغتيل فى ١٩٦٧ والوهم الجديد الذى يزيدهم احباطاً، وقد صور ذلك الأستاذ نجيب محفوظ فى رائعته «الحب فوق هضبة الهرم» والتى اثبت فيها أنه وسط فيض الكتاب الشبان كان ـ وهو يقترب من الثمانين ـ أقدرهم وأصدقهم فى التعبير عن مأساة الشباب فى وقتنا الحالى، كذلك صور كاتبنا الكبير مختلف الاتجاهات السياسية المسيطرة على مجتمع ما بعد الانفتاح الحالى فى قصته «المسخ والوحش»، ثم شخص بعد ذلك ببصره إلى عالم الميتافيزيقا وما وراء الطبيعة فى قصته الأخيرة «السهم» التى تعتبر من آخر ما خطت يده من قصص، وهذه هى المرة الأولى التى تظهر فيها هذه الأقصوصة الصغيرة المشعة بالمعانى والإيحاءات ضمن مجموعة قصصية.

وتبقى فترة المد الثورى التى شهدت قيام ثورة يوليو والإصلاح الزراعى وتأميم القناة والوحدة مع سوريا بعيدة

عن العالم القصصى لكاتبنا الكبير فأذهب إليه مستفسراً فيقول بابتسامة صافية: «إن الكاتب لا تحركه إلا سلبيات الحياة ومآسيها أما الإنجازات الكبرى فهى تجعله ينام هنيئاً ولا يكتب»، ثم يضيف : «لقد انفعلت لثورة يوليو انفعالاً كبيراً حتى أننى توقفت تماماً عن الكتابة من عام ١٩٥٢ وحتى ١٩٥٧ وبذلك يمكنك القول بأننى عبرت عن ثورة يوليو بالصمت لأن إنجازاتها كانت مدوية لا تحتاج إلى جانبها أصواتاً أخرى»، لكنك تجد ـ صديقى القارئ ـ بعد ذلك بحوالى ثلاثين عاماً حين كان قد تم الإجهاز تماماً على الثورة أن نجيب محفوظ قد رثا الثورة وإنجازاتها كما لم يفعل أحد فى روايته المجيدة «**يوم مقتل الزعيم**».

وخلال رحلته الطويلة مع المتغيرات التى شهدها تاريخنا منذ بداية هذا القرن عبر نجيب محفوظ أيضاً عن الثوابت فى هذا المجتمع والتى لا تتغير ولا تتبدل ما بين عصر وآخر، مثل فكرة الوحدة الوطنية التى صورها ببساطة رمزية فى قصة «**جنة الأطفال**» كما صور بعض النماذج البسيطة فى حياتنا والتى توجد فى كل عصر وزمان كما يتضح فى قصة «**حادثة**» وبعض المواقف الإنسانية الثابتة كا يحدث فى قصة

«مطاردة» والتى تنشر هنا هى الأخرى لأول مرة ضمن هذه المجموعة.

فهل عمد نجيب محفوظ إلى هذا قاصداً؟ لو أنه فعل ذلك لجاء إنتاجه الأدبى مفتعلاً، وقد قال لى فى هذا الصدد: «إننا لم نقصد أبداً التعبير عن المجتمع كهدف فى حد ذاته .. لقد كنت أتأثر بأمور فردية مما يتأثر به كل إنسان أو بأمور عامة سياسية فأكتب عنها غير قاصد إلا الامتاع».

ولقد حقق نجيب محفوظ هدفه النبيل والسامى فأمتع أجيالاً متعاقبة من القراء بروائعه التى وقفت أمامها أكبر الجوائز الأدبية فى العالم مشدوهة لكنه إلى جانب ذلك ـ شأنه شأن «بلزاك» فى فرنسا او «ديكنز» فى انجلترا ـ كان ديواناً خالداً للتاريخ الحى لهذه الأمة فى الجزء الأكبر من القرن العشرين وهو يقول في ذلك: «إن الكاتب يدخل تلقائيا كأحد أهم عوامل تطوير المجتمع. بما يقدمه من تصوير لهذا المجتمع، لكنه يدخل المعركة دون أن يدري .. دون أن يعي يجد نفسه في الميدان»

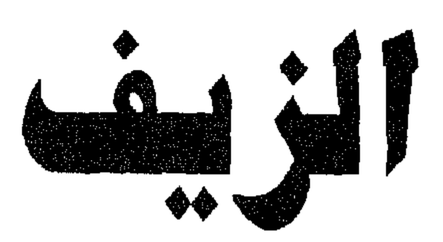
حتى أصبحت شخصياته هى النموذج لمختلف الأنماط الحية فى هذه المجتمع وهذا هو شأن الأدب العظيم الذى

يعود إليه العلماء للتدليل على نظرياتهم، فكما عاد «فرويد» إلى التراجيديا الإغريقية القديمة ليدلل بها على الطبيعة البشرية ويسمى بها أسماء بعض الحالات النفسية الخاصة فيقول عقدة «أوديب» أو عقدة «إلكترا» فإن علماء النفس والاجتماع عندنا يعودون إلى شخصية «سى السيد» للتدليل على نموذج إجتماعى ساد فى مرحلة ما من تطور هذا المجتمع.

لقد جمع أديب مصر العظيم نجيب محفوظ فى أعماله الروائية تاريخ هذه الأمة فى فترة من أهم فترات تحولها فأصبح رمزاً من رموزها التى لا يمكن ذكر إسمها بدون ذكر إسمه وتلك هى أسمى مرتبة يمكن أن يصل إليها أى كاتب فى أى زمان أو مكان. وهذه المجموعة الصغيرة التى بين يديك ـ صديقى القارئ ـ هى خير دليل على ذلك.

محمد سلماوى





الزيف

كان التياترو مكتظا بالنظارة، حيث كانت تمثل رواية البخيل لموليير، وكان جمهوره كالمعتاد خليطا من طلاب التسلية ومحبى الظهور ومدعى الفن وعشاق الخيال، وكان على أفندى جبر المترجم بوزارة الزراعة بين الجالسين فى الصفوف الأمامية، وكان يتتبع التمثيل بين اليقظة والنوم، واضعا خده على يده، ومسندا مرفقه إلى مسند المقعد، وكان قد طالع فى بعض المجلات عن الرواية ما جعله يظنها آية من آيات الكوميديا فجاء التياترو بنفس تواقة إلى الضحك والسرور، وسرعان ماخاب رجاؤه وفترت حماسته وكاد يستسلم للنعاس، ولكن الأقدار أرادت أن تتبرع بتعويضه عن خيبته؛ ففى أثناء الاستراحة منه النادل وانحنى على أذنه وقال باحترام وتأدب:

ـ هل للبك أن يتفضل بالذهاب إلى البنوار رقم واحد؟

ثم ذهب إلى حال سبيله. ونظر على أفندى إلى البنوار رقم واحد فرأى الستار الأبيض مسدلا عليه فأدرك أن به «حريما» ، وقام من توه وغادر الصالة وقصد إلى البنوار وهو يضرب أخماسا فى أسداس، وطرق الباب مستأذنا فسمع صوتا رخيما لا يعرفه يقول:

ـ تفضل.

فتردد لحظة سريعة لأنه أدرك ـ لدى سماعه الصوت الغريب ـ أن فى الأمر خطأ، ولكنه كان من الرجال الذين تغلبهم على نفوسهم فى محضر النساء جسارة غير محدودة وحب للمجازفات وثقة بالنفس وطيدة، فاقتحم الباب غير هياب وصار وجها لوجه أمام السيدة الجالسة. وكانت فى الأربعين ممتلئة الجسم ناضجة الأنوثة، يزين وجهها العاجى حسن تركى ممصر، ويدل على طبقتها العالية ثوبها الأنيق ونظرتها الرفيعة وحليها الثمينة، وقد بهر الرجل أمام روعة الحسن وانحنى باحترام وهو يقول فى إشفاق : «وا أسفاه ستعلم السيدة بالخطأ وسرعان ما تنتهى المقابلة!» ولكن خاب ظنه لأن السيدة ابتسمت إليه تحييه كأنه هو المعنى، وقالت برقة تعرفه بنفسها:

ـ أرجوك ألا يسوءك إقلاقى لراحتك .. أنا أرملة المغفور له على باشا عاصم !.

يسوءه ! ينبغى أن يعد نفسه من المحظوظين فى هذه الدنيا لأن سيدة كتلك السيدة تقول له مثل ذلك الكلام بتلك اللهجة الرقيقة! ترى لماذا دعته لبنوارها؟ فهو لا يذكر أنه رآها من قبل وإن كان يعلم علم اليقين أنه قرأ اسمها فى بعض الأخبار الخاصة بالجمعيات النسائية، وخيل إليه غروره أنها ربما رأته من حيث لم يرها وأنها ربما وقع فى نفسها منه ـ كما حدث لغيرها وإن كن لسن من نوعها ـ ما علقها به، فإذا صدق حدسه ـ والدلائل تجمع على صدقه ـ فهى تدعوه كما دعت قديما امرأة العزيز فتاها!!

وأحس بنشوة فرح وزهو وقال للمرأة بكل رقة وهو ينظر إليها كما ينظر الإنسان إلى شئ ثمين يملكه:

ـ العفو يا صاحبة السعادة .. خادمك ...

وهم أن يقدم لها شخصه العزيز، واستدلت السيدة من لهجته على ذلك فأشارت إليه بيدها البضة وقالت بسرعة وهى تبسم عن در نضيد:

ـ وهل أنت فى حاجة إلى تعريف يا أستاذ ... تفضل.

وجلس كما أرادت. ولكن عبارتها الأخيرة قلبت ما بنفسه رأسا على عقب، فعلاه الوجوم، وأطفأ الكدر نور السرور فى عينيه، لأنه من المحتمل أن يكون فاتنا محبوبا من النساء. وأن تقع فى غرامه حرم عاصم باشا، ولكن مما لا ريب فيه أنه فى حاجة إلى تعريف ككل إنسان وأنه لم يكن أبدا فى غنى عن التعريف، فماذا تعنى السيدة الجميلة بقولها هذا ؟ إنه يكاد يهتدى إلى وجه الحق، وقد ساعده على ذلك قولها له « يا أستاذ» فهل تظن السيدة أنه شاعر مصر الأكبر بل شاعر الشرق العربى جميعا الأستاذ محمد نور الدين؟ والحق أن المشابهة التى بينه وبين سيد الشعراء معروفة مشهورة، يعلم بها جميع أصحابه، وطالما جعلوا منها موضوعا للتنكيت والقفش، فكلاهما له هذا الوجه المستطيل الذى يحد من أعلى بجبهة عالية ومن أسفل بذقن عريضة، وكلاهما له هذا الأنف الرومانى العظيم والشارب الشركسى الغزير ولا اختلاف بينهما إلا أنه أطول من الشاعر وأعظم امتلاء، وهذا يدل على أن السيدة ـ فيما لو صدق ظنه ــ لم تر الشاعر إلا فى إحدى صوره التى تظهر أحيانا فى المجلات والصحف.



وا أسفاه، ذاق حلاوة الفوز ومرارة الهزيمة فى لحظة واحدة، فهل يتراجع ويرضى بالغنيمة بالإياب؟ ولكن مثل هذا التردد لم يكن ليخالجه إلا لحظات قصيرة العمر، لأنه ـ كما قلنا ـ يفقد رشاده فى حضرة النساء، ولا يفكر إلا فى انتهاب اللذة واقتناص الفرصة، فجلس مبتسم على ما به من خيبة مريرة مطمئنا كما ينبغى لشاعر مصر العظيم.

وقالت السيدة :

ـ سيدى الأستاذ، إن معرفتى بك قديمة جدا لا كما تظن، وإن أفضالك على روحى لا تقدر بثمن ولا يحصيها عد، وطالما منيت نفسى بالتحدث إليك، وكم كان فرحى عظيما حين عثر بصرى بك فلم أتردد عن دعوتك، إنى أرجو يا سيدى أن تغفر لى تطفلى..

فقال على أفندى وقلبه يلعن الشاعر:

ـ ما أسعدنى بعطفك يا سيدتى ! إننا معشر الشعراء لنحرق أرواحنا فى سبيل الخلود والشهرة، ومثل إعجابك ياسيدتى أثمن لدى من الخلود والشهرة !

فتوردت وجنتا المرأة ورنت إليه بعينين ناعستين، وقرأت

فى عينيه ما حملها على تجنب حديث العواطف وإن كانت تضمر الرجوع إليه فى المستقبل !

فقالت:

ـ هل أعجبتك الرواية ؟

الرواية التى صدعت رأسه وفر منها إلى النعاس !!

إنه كان حكيما فلم يسارع إلى مصارحتها برأيه، ولم تنتظر السيدة جوابه فقالت بثقة:

ـ لا شك أنك تعجب بها أيما إعجاب، لأنها من تلك الفكاهة العالية التى كتبت عنها فصلا رائعا فى كتابك الخالد «فلسفة الجمال» وقد كان هذا الفصل سبيلى إلى تذوق موليير وتوين وشو».

فحمد الله أن لم يذكر رأيه الحقيقى، وهز رأسه باسما وقال باطمئنان عجيب:

ـ البخيل آية فنية رائعة، وهى من الآيات التى لا تمنح كنوزها مرة واحدة، ولقد قرأتها مرة وأخرى، وهأنذا أشاهدها للمرة الثالثة، وفى كل مرة أفوز بحسن جديد!.

فابتسمت السيدة وقالت:

ـ إذا أصاب ظنى!

فقال على أفندى :

ـ إنك يا سيدتى آية فى الذكاء.

ولم يأذن الوقت بالاسترسال فى الأحاديث إذ دق الجرس معلنا انتهاء الاستراحة، فاضطر على أفندى أن يستأذن فى طلب الانصراف، وقالت السيدة وهى تودعه:

ـ أرجو أن تشرف قصرى بزيارتك.

فقال وهو ينحنى على يدها :

ـ لى عظيم الشرف يا سيدتى.

ـ يوم الأربعاء الساعة السابعة مساء .. شارع خمارويه رقم ١٠ بالزمالك ..

وتنهدت المرأة ارتياحا وظنت أنها نالت أمنية من أعز أمانيها، وكانت مخلوقة سعيدة الحظ كأن الأقدار تتوخى راحتها، تزوجت من رجل من رجال مصر القانونيين

المعدودين. فتمتعت برجولته وكفاها الموت شر شيخوخته، وترك لها مالا وجاها واسما عظيما، ولكن ضايقها ظهور منافسة خطيرة لها هى أرملة الدكتور إبراهيم باشا رشدى، يجرى ذكر جمالها ـ مثلها ـ على الألسن، وتتحدث بثرائها المجتمعات، وقد وضعتهما المصادفات فى حى واحد وأغرت بينهما العداوة والبغضاء، فكلتاهما تتمتع بأنوثة ناضجة وجمال فتان وثروة طائلة، وتملك قصرا فخما يتيه على قصور الأمراء، وكانت كل منهما تعتز بنفسها وتود لو يغلب نورها نور الأخرى فتنافستا فى اقتناء السيارات الثمينة والتحف النادرة والثياب الأنيقة، وتسابقتا فى ميدان الظهور تعرضان حسنهما وتنشران حديثهما، واتخذت كل منهما بطانة من كرائم الأسر والآنسات المثقفات. وقد علمت حرم عاصم باشا يوما أن منافستها دعت إلى تأليف جمعية المرأة الحديثة فلم يرتح لها جانب حتى كونت جمعية تعليم الأميات، وسمعت يوما بأن الأخرى تبرعت بمبلغ كبير من المال مساهمة فى إنشاء مدرسة كبيرة وأن الصحف أثنت عليها جميل الثناء، فأمرت بتشييد جامع كبير فى عزبتها ودعت لالتقاط صورة مصور أكبر مجلة فى مصر، وطلبت إليه أن يثنى على ورعها وتقواها..!

وكان آخر ما نمى إلى مسامعها من أخبار منافستها ما لاكته الألسن من أن الموسيقار المعروف الأستاذ الشربينى قد شغف بها حبا، وأنه لا يفتأ يتردد على قصرها، وأن الدور الذائع الصيت «حبيت يا قلبى» الذى يتغنى به المصريون جميعا وتهفو إليه نفوسهم لحن بوحى جمالها! وما علمت بهذه الأخبار حتى التهبت نفسها التهابا واحترق قلبها احتراقا: وتلفتت يمنة ويسرة تبحث عن عاشق «شهير» تصير بحبه حديثا ممتعا وتغدو له وحيا ملهما، فذكرت شاعر مصر محمد نور الدين، فهو المصرى الوحيد الذى له ما للشربينى من الشهرة والمكانة، وهو أجدر الناس بتخليدها فى قصيدة كما خلد الشربينى منافستها فى أسطوانة، وفى تلك الأثناء رأت الشاعر مصادفة فى التياترو وكانت تفكر فى وسيلة تصل بها إليه، فهل كنا مغالين إذ قلنا إنها نالت أمنية من أعز أمانيها ؟..

* * *

أما على أفندى جبر فقد رجع إلى مقعده وهو يلقى على الحاضرين نظرة فاحصة خشية أن يكون الشاعر الأصلى بين النظارة! وقد سائل نفسه : «ألا يجدر بى أن أفر؟» ولكنه لم يكن جادا فى سؤاله، لأنه لم يعتد الفرار من ميدان النساء.

ولم يأل جهدا فى التأهب والاستعداد ليتقن تمثيل شخصيته الجديدة، فطبع بطاقات باسم محمد نور الدين ورأى عن حكمة أن يلقى نظرة سطحية على مؤلفات الشاعر فذهب إلى مكتبة وطلب مؤلفاته، فسأله الكتبى:

ـ كلها؟

فقال:

ـ نعم.

فقال الرجل:

ـ الطلب غير ممكن الآن يا أستاذ لأن بعضها نفد والبعض غير موجود فى المكتبة. فإذا انتظرت إلى الغد ....

ولكنه قاطعه متسائلا :

ـ ما الحاضر بين يديك ؟

فقال الرجل :

ـ دواوينه الأربعة: النور والظلام، والجحيم، والرحلة الروحية، والسماء السابعة، وكتاب فلسفة الجمال، والرحلة الشرقية، والجزء الثانى من كتاب الغد!.

وهاله الأمر واسقط فى يده، ولم ير بدا من ابتياعها جميعا، وكانت المرة الأولى فى حياته التى يشترى فيها ديوان شعر؛ لأنه بطبعه لا يحب الشعر ولا يهضمه، ولا يجد مسوغا مطلقا للقوافى التى يضمنها معانيه، فلماذا لا يرسل الكلام على سجيته؟ وإنه لينفث فى آذان النساء غزلا يعتقد أنه أرق الكلام وأمتعه، ومع هذا لم يشعر بالحاجة إلى تنسيقه فى بيت من الشعر، ولم يقرأ من الشعر طوال حياته سوى المحفوظات المدرسية وهو كاره، فما كان يخطر له على بال أن يشترى ديوانا من الشعر فضلا عن أربعة دواوين كاملة، ولكن قدر فكان!. وقال لنفسه متبرما وهو يحملها إلى بيته: «أعقل أن يكلفنى الحب مالا أو مطاردة خطرة أو صبرا طويلا أو شجارا عنيفا أما الذى لا أعقله أن يتقاضانى قراءة هذه الكتب؛ فهل أنا عاشق أم تلميذ؟».

وأخذ يقلب صفحات الكتب فغص بالشعر كما توقع ولم يفقه له معنى؛ ولو كان يسيرا مثل «إذا نام غر فى دجى الليل فاسهر» لهان الأمر، ولكنه كان من نوع عجيب سهل الألفاظ مغلق المعانى !! وهذا غزل نور الدين فما بالك لو تطاول إلى الأغراض الأخرى التى يجفل قلبه من مجرد تلاوة عنواناتها!

والأدهى من ذلك وذاك أن نثره ليس بخير من شعره، فقد قرأ صفحات من كتاب فلسفة الجمال ما كان يظن أن إنسانا عاقلا ينشرها على الملأ، وضاق صدره بنور الدين وشعره ونثره فرمى بالكتب جميعا ولكنه قال بإصرار وعناد: «سأذهب يوم الأربعاء».

وفى الموعد المسمى ذهب إلى قصر السيدة الجليلة بشارع خمارويه، وكان بادى الوجاهة والأناقة، وأرسل بطاقة إلى ربة القصر، فقاده الخادم إلى صالون رائع لم ير أجمل منه على كثرة ما غشى من الصالونات الفخمة، ولكنه لم يدهش لأن منظر الحديقة والقصر الخارجى سلبه كل دهشة، وكان يكره الأنتظار لأن أمثاله من المغامرين تؤاتيهم النجدة بداهة وارتجالا، وتشحذ أسلحتهم فى أثناء المعمعة، مثله فى ذلك مثل الخطيب المطبوع الذى يلهمه الجمهور المعانى فيتدفق، ولذلك أحس بارتياح عجيب حين رآها تشرق عليه من باب الصالون فى فستان أبيض غير مكتوم ، يعلن عن جمال كل ثنية من ثنيات جسمها اللدن، ويبين خاصة عن الخصر الدقيق الذى يتعلق به كفلاها الثقيلان، فطرد بقوة إرادته بقية قلق كانت عالقة بنفسه وانحنى باحترام، فأعطته يدها فضغط عليها بحنو، ثم قال وهما يجلسان:

ـ لقد حسبت الأيام ساعة فساعة!.

فابتسمت السيدة وقالت بلهجة لم تخل من عتاب:

ـ هذا معنى مبتذل لا قرابة بينه وبين معانيك الشعرية الخالدة.

فاحتدم الغيظ فى قلبه ولعن الشعر والشاعر، وتذكر قراءته لبعض المعانى «الخالدة» التى لم يفقه لها معنى وعجب كيف تؤثرها هذه السيدة العجيبة على عبارته البسيطة التى طالما نصبت الشراك وغزت الحصون، وأراد أن يلتمس لعجزه عن خلق المعانى «الخالدة» عذرا فلسفيا فقال:

ـ معذرة يا سيدتى، إنى إذا غشينى لألاء الحسن السامى تركت نفسى على فطرتها، وهجرت إلى حين المعانى التى يبدعها التفكير والتكلف!.

فاتسعت عينا السيدة الجميلتان وقالت بإنكار:

ـ يا عجبا ! ألست القائل يا أستاذ فى مقدمة ديوانك أن شعرك شعر الفطرة والطبع؟ أولست الآخذ على شعراء المدرسة القديمة تكلفهم !؟.

فأسقط فى يده ووجد أن الحذر لم ينفعه، وخشى أن يفقد ثقته بنفسه فقال بلهجة العالم الذى يعنى ما يقول:

ـ إن الشعر يا سيدتى مزيج من الفطرة والتفكير والتفكير غير التكلف، وما أردت قوله هو أن الشاعر فى حضرة الحسن يستبد به الشعور الخالص.

وأشفق من أن تسأله مثلا عن الفرق بين التفكير والتكلف أو معنى الشعور الخالص ولكن السيدة قالت بإعجاب:

ـ صدقت يا أستاذ، ولعل هذا يفسر قولك أن الشعر لا يعبر عن عاطفة إلا بعد أن تسكت ثورتها ويهدأ انفعالها.

فهز رأسه مبتسما وهو يتنهد ارتياحا:

ـ وهو الحق المبين يا سيدتى، أرى أن رأسك متوج بتاجى الحسن والأدب!.

فتورد خداها وقالت بحماس:

ـ إنى واحدة من قرائك المعجبين ... وقد قرأت مؤلفاتك بإمعان وشغف.

فقال:

ـ أين لى قراء مثلك يا سيدتى العزيزة؟ .. إن البلد لا يقدر الكاتبين.

ـ هذا حق وا أسفاه على وجه العموم، ولكن يقال إن لك جمهوراً تحسد عليه يا سيدى الأستاذ.

فأشار بيده إشارة تدل على الأسف وقال:

ـ لو أتيح لى أن أكتب باللغة الإنجليزية مثلا.

فسألته السيدة بقلق:

ـ أوَ ليس لك الجمهور الذى تحسد عليه ؟.

فقال باطمئنان:

ـ جمهورا قرائى يربو على ضعفى جمهور أى كاتب آخر فى الشرق الإسلامى!.

ـ يا لها من مكانة سامية !.

فهز رأسه آسفا وقال:

ـ لقد دفعت شبابى وقوتى ثمنا لها!

ـ أآسف أنت على هذا ؟.

ـ لا أدرى.

ـ لقد خلدت شبابك فى آثارك الباقية.

ـ أيهما أفضل أن يخلد شبابى كى يتمتع به غيرى أم يفنى وأتمتع به وحدى ؟.

ـ لا تناقض بين الاثنين، فإنك تستطيع أن تستهلكه فى متعتك ثم تخلده فى شعرك، أتسألنى وأنت أستاذى؟!.

ـ هذه سعادة لا تتاح لغير المجدودين.

ـ وإنك لمن المجدودين !

فنظر إليها نظرة لو تحولت إلى كلمة لوقع قائلها تحت طائلة قانون العقوبات، وكان يجيد هذه اللغة ثم قال بخبث:

ـ إنك يا سيدتى تتحدثين عن حظى كما لو كان مصيره بين يديك.

فتخضب خداها باحمرار طبيعى غلب أحمرها الصناعى الخفيف، وما كانت تكره أن يكون مصير سعادته بين يديها، ولكنها ادخرت هذا الحديث إلى وقت آخر فغيرت مجراه وقالت فجأة:

ـ ينبغى أن أنتهز فرصة وجودك معى لأسالك عن معنى بعض الأبيات الشعرية التى استغفلت على.

فخفق قلبه خفقة شديدة أيقظته من غيبوبة الغرام، وذعر ذعرا شديدا، إذ كيف له بشرح معانى شعر نور الدين المغلقة وهو الذى لا يفهم أيسر الشعر وأسلسه؟ وخشى إن تردد أن يخسر كل شئ بعد أن أوفى على الفوز، فقال بقوة:

ـ أعفينى يا سيدتى !.

فسألته دهشة:

ـ ولم ؟ هل يبرم الشاعر بشعره أحيانا؟.

ـ ليس الأمر كذلك، ولكن قد يسمو الشاعر حينا على شعره فيخاله بعض مظاهر العالم المادى!، وإنى الآن فى نشوة روحية من تلك النشوات التى تخلق الشعر فكيف أنزل إلى الشرح والتفسير ؟...

فغمرتها موجة فرح وسعادة وسألت نفسها: «ترى هل أكون غدا بطلة قصيدة رائعة خالدة؟» سألته فى لهفة:

ـ أحقا ما تقول يا سيدى؟.

ـ كيف يداخلك شك فى هذا؟ تاللّه إذا لم تخلق هذه الساعة شعرا فلا خلق الشعر أبدا!.

فامتلأ قلب المرأة فرحا ومنت نفسها بأسعد الأمانى.

وفى تلك اللحظة دخلت خادمة تعلن عن قدوم زائرات، ولم تفاجأ السيدة ـ كما فوجئ الأستاذ ـ بقدومهن كأنها كانت على موعد معهن، وأمرت الخادمة بإدخالهن، وبعد لحظة قصيرة دخل ثلاث آنسات حسان يحتار ماء الشباب فى وجوهن وتلقتهن بترحاب وقدمت إليهن الشاعر بلهجة فخار قائلة:

ـ الأستاذ محمد نور الدين سيد شعراء الشرق!.

وقدمتهن إليه واحدة واحدة قائلة إنهن من عضوات جمعية تعليم الأميات التى تتشرف برئاستها، ثم قالت:

ـ إنهن أديبات مثقفات، ولكن وا أسفاه فإن ثقافتهن قاصرة على الأدب الفرنسى الذى يتعشقنه إلى درجة أن جعلن الفرنسية لغة حوارهن، وإنى أرجو أن يكون تعرفك بهن يا سيدى سببا لتوجيهن إلى الثقافة العصرية.

فعجب على أفندى وتساءل دهشا: ترى هل يعلمن الفلاحات الأميات مبادئ اللغة الفرنسية ؟!

استطردت السيدة تقول للآنسات :

ـ ستجدن فى صديقى الشاعر محدثا جليلا، ولكن ما لهذا دعوتكن الليلة، فقد حجزت البنوار الأول فى تياترو رمسيس لنشاهد معا رواية البخيل، ولا بأس أن يشاهدها الأستاذ للمرة الرابعة إكراما لى!.

والحقيقة أن السيدة ماقصدت بدعوتهن إلا أن تذيع بينهن نبأ صداقتها للشاعر لكى يذعنها بدورهن فى الصالونات الراقية فيتصل خبرها حتما بعلم منافستها الخطيرة، وما ذهابها بهن إلى تياترو رمسيس إلا لهذا الغرض نفسه.

وقد تضايق على أفندى من حضور الزائرات، وتضايق أكثر من دعوته إلى التياترو، وكان يرجو أن تطول خلوته بها ولكنه كان يبالغ فى التشاؤم ولا يدرى بالسعادة التى تخبئها له الأقدار، ففى الاستراحة انتهزت السيدة فرصة خروة الآنسات من البنوار وقالت له فى خفر:

ـ ستعود معى إلى القصر.

ولم يكن للدعوة إلا معنى واحد، فتساءل على أفندى ترى

كيف يتخلص من الآنسات، ولكن السيدة لم تعمل لذلك حسابا، فعند انتهاء التمثيل عادت السيارة بهم جميعا، وودعهما الفتيات عند مبتدأ شارع خمارويه ثم سارت بهما السيارة وحدهما إلى القصر السعيد، فأيقن أنه رغم طول تجاربه جاهل بالنساء وأنه لم يعرف قبل الآن امرأة مغرمة بالفضائح!

وكانت ليلة ..

* * *

وبعد يومين ذهب على أفندى جبر إلى زيارة المعرض الرابع عشر للفنون الجميلة، لم يكن من الهواة ولكنه كان من محبى الظهور والادعاء وكان حبه للنساء يدفعه إلى ارتياد الأماكن التى يحتمل وجودهن بها، فمضى يسير فى الحجرات الأنيقة وينظر بعينين فاترتين إلى اللوحات، حتى استرعت انتباهه من بينها صورة فلاحة عارية تستحم فى النيل، وقد أجادت الريشة تصوير قدها النحيف وثدييها الناهدين وأضفت على سمرة بشرتها سحرا شهويا عجيبا، فوقف أمامها طويلا لغير وجه الفن، وذكر - لرؤيتها - ذلك الجسد البض المكتنز والردفين المكورين كأنهما إسفنجة

هائلة مشبعة بالماء والساقين المكورين والبشرة العجيبة ذات الرائحة الزكية، ذكر ذلك الحسن الذى رمى به الحظ بين يديه قضاء وقدرا .. أى ليلة جميلة كأنها حلم لذيذ، لا يجود بمثلها عالم الحقائق، وكأنه أراد أن يتأكد أنه حقيقة لا حلم فأخرج مذكرته وقرأ فيها الموعد المنتظر الذى كتبته بيدها الرخصة ..!

وكأنما المصادفة لم تقنع بما أتت من عجب عجاب، فإنه لفى تأمله وتذكره إذ أحس بيد توضع على كتفه، فالتفت إلى الوراء فرأى صاحبته الجميلة واقفة بين جماعة من السيدات الأرستقراطيات، واستولت عليه الدهشة وعلاه الارتباك، أما السيدة فقد التفتت إلى صواحبها وقالت بتيه:

ـ ائذن لى أن أقدم إليكن صديقى الأستاذ محمد نور الدين سيد شعراء الشرق!.

فابتسمن إليه بترحيب إلا واحدة رددت النظر بينه وبين الأرملة، وقالت ضاحكة:

ـ يا لها من نكتة بارعة يا سيدتى!.

فسألتها السيدة :

ـ أى نكتة تعنين ياسيدتى ؟ .

فلم تحفل السيدة بإنكار الأرملة الجميلة، وقالت وهى تحدج على أفندى بنظرة استغراب:

ـ رحماك يا ربى .. الآن صدقت قول القائل: يخلق من الشبه أربعين!.

فاحتدمت الأرملة غيظا وقالت:

ـ إنى لا أفقه لما تقولين معنى.

ـ بل تفقهين كل المعنى وتريدين أن تضاحكينا، والحق أن الشبه الذى بين شاعرنا المجيد وحضرة البك شبه عجيب..

فاشتد الغيظ بالأرملة والتفتت إلى على أفندى وقالت:

ـ تكلم يا أستاذ لتعلم عصمتها أنى لا أهزل !.

وكان على أفندى فى حالة يرثى لها، وقد خانته جسارته تلقاء نظرات السيدة الجريئة التى لا شك تعرف الشاعر الأصلى تمام المعرفة، فلم يجد مناصا من الهرب، فتظاهر بالدهشة، وابتسم إلى الأرملة البائسة وقال:

ـ معذرة يا سيدتى .. يخلق من الشبه أربعين!.

وكان يتكلم بلهجة جدية لا تترك أثراً للشك فى نفس السامع. فجحظت عينا السيدة دهشة وانزعاجا. وعلا ضحك صاحباتها، وتأملنه بإمعان وهى تكاد تجن من الدهشة، وسألته:

ـ ألست أنت الشاعر؟

فأجاب بهدوء:

ـ كلا يا سيدتى . أنا موظف بوزارة الزراعة.

ـ ألم تقابلنى قبل الآن؟

ـ لم يحصل لى هذا الشرف يا سيدتى.

قال على أفندى ذلك وأحنى رأسه تحية وذهب تاركا السيدة لصديقاتها الضاحكات، وقالت السيدة الأخرى:

ـ إنى أعجب كيف يخدعك بصرك إلى هذا الحد، ألا ترين أنى فطنت إلى الحقيقة من النظرة الأولى !.

فقالت الأرملة الذاهلة تدارى خجلها:

ـ ما أعجب الشبه بينهما!!.

فقالت الأخرى:

ـ ولكن شتان ما بين قامتيهما.

وقالت أخرى ساخرة:

ـ سيغضب «صديقك» الشاعر حين يعلم بهذا الخطأ الغريب.

وغادر على أفندى المعرض مضطربا: ولما تنسم الهواء الطلق انفجر ضاحكا حتى دمعت عيناه، على أن الموقف لم يكن يخلو من دواعى الأسف ما دام قد خسر الموعد المنتظر وكان يمنى نفسه بأكثر من ليلة واحدة..



مندوب فوق العادة

كنت أراجع الصحف اليومية، وهو ما أبدأ به عملى عادة كل صباح، عندما فتح الباب دون استئذان عن رجل غريب. كان هائل المنظر لطوله وضخامته، فخم البدلة، وطربوشه الطويل الغامق يضفى على وجهه الأبيض نصاعة، وفيه وجاهة تؤكدها نظارة كحلية وشارب غزير مربع كساه المشيب. كان أيضا فى الستين أو نحوها لكنه تقدم من مكتبى فى حركة قوية ثابتة قابضة يمناه على منشة عاجية بيضاء وهو يقول بصوت حلقى غليظ:

ـ صباح الخير ، مكتب الصحافة؟

فأجبته ولم أفق من صدمة اقتحامه :

ـ نعم، صباح النور!

ـ أظنه تابع لمكتب الوزير؟

ـ نعم ..

فأخرج حافظته، واستخرج منها بطاقة أعطاها لى. نظرت فيها فقرأت:

اسماعيل بك الباجورى

مستشار برياسة مجلس الوزارة

انفجرت «الرياسة» فى رأسى، ولم يكن قد مضى على خدمتى إلا عام أو دون ذلك بأشهر، ووقفت باحترام وأنا أبتسم كالمعتذر، وقلت بتأثر ظاهر:

ـ تفضل بالجلوس يا فندم، أنا فى خدمتك!

لكنه مشى موغلا فى الحجرة الصغيرة المستطيلة حتى وقف وراء النافذة فى نهايتها يطل على ميدان الأزهار، ثم عاد إلى مكتبى وهو يسأل:

ـ ألم يحضر معالى الباشا؟

ـ كلا، معاليه يحضر حوالى العاشرة.

ـ ولا مدير مكتبه؟

ـ المدير يحضر حوالى التاسعة ..

فانحرف جانب فيه الأيسر فى امتعاض، ثم مد يده إلى سركى الوارد وراح يفره بسرعة ثم قال:

ـ خانات كثيرة لم تسدد، هاك شكوى لم يرد عليها منذ عشرين يوما!

فانقبض صدرى وأنا أتساءل على وجه من أصبحت اليوم، ثم قلت:

ـ أنى أوزع الشكاوى المنشورة فى الصحف على الإدارات المختصة فى يوم ظهور الجريدة، والإدارات هى التى تتأخر فى الرد ..

ـ ولم لا تستعجلها؟

ـ أستعجلها طبعا، ولكن بعض الردود يستدعى التحرير إلى التفاتيش فى الأقاليم.

فهز رأسه فى امتعاض ثم أشار إلى الباب وهو يقول بلهجة آمرة:

ـ اتبعنى من فضلك ..

وسار فى ردهات الوزارة وأنا أسير إلى جانبه متأخرا عنه خطوة من باب التأدب، من ردهة إلى ردهة، حتى أخذنا فى طريق العودة وهو لا يمسك عن نثر الملاحظات:

ـ مكاتب خالية، أين الموظفون؟!، حتى السعاة، والفراشون كالذباب الغائم!، ما هذه الزكائب المحشوة بالأوراق؟، وهذه الزبالة ؟، وتلك الأكداس المكدسة من الملفات كالمقابر، ورائحة الزيت والبصل؟، ما شاء اللّه .. ما شاء اللّه..

وجعلت أبدى عن أسفى بهز الرأس والتبسم الحزين وأنا أسأل اللّه أن ينهى اليوم على خير، وإذا به يقول:

ـ كل شئ فى غير محله ؟ .. لو يعلم دولة الباشا!.

وعدنا إلى الحجرة فوقفت وراء مكتبى على حين جلس على الكنبة فى شبه استلقاء ثانيا ساقه فوق ركبته، والظاهر أنه رحم ارتباكى فقال لى:

ـ اجلس ..

فجلست متشجعا بنبرة رقيقة انتزعتها انتزاعا من غلظة صوته، ومضى يتفحصنى من وراء نظارته الكحلية فى غير مبالاة ثم سألنى:

ـ من الجامعة ؟

ـ نعم ..

ـ لم توظفت؟

فلم أحر جوابا. فقال:

ـ قل لأعيش!، كلنا يريد أن يعيش، لكن الحياة تجرى على غير ما يجب!

فخفضت رأسى موافقا، ولا شئ أحب إلى من أن يحضر مدير المكتب ليخلصنى من موقفى الرهيب.

ـ أنا مكلف بعمل بحث شامل، مهمة شاقة، ولكن أهل ثمة فائدة؟

تأثرت جدا لتعطفه بالبوح بمهمته الخطيرة وازددت فى الوقت نفسه حرجا فقلت:

ـ ستجئ الفائدة حتما على يديك.

فتثاءب لدهشتي، وحل صمت مقلق، وكان يبدو عظيما جدا، ولعله ضاق بالصمت والانتظار فراح يتحدث وكأنما يحدث نفسه هذه المرة:

ـ على المرء أن ينشد الطمأنينة والصفاء ولكن كيف يتأتى هذا ؟!

فقلت وأنا في شك من سلامة تدخلي في الحديث:

ـ ربنا يهب سعادتك الصحة.

فأنزل ساقه عن ركبته قائلا:

ـ الصحة!، ما هي الصحة ؟، هي كمال التوازن والتوافق والتعاون في الكائن، ولكن هيهات أن تتحقق إذا كانت الصحة العامة معتلة، خذ مثلا صحة الوزارة!، خانات لم تسدد، موظفون لا يحضرون، روتين، وما الرأي في هذا الغلاء الفاحش؟

فقلت وأنا أتابعه بجهد وأي جهد:

ـ شيء لا يطاق ..

ـ العالم أيضا صحته معتلة، هتلر ورم خبيث، والحلفاء

ورم آخر، والأوقاف عندكم لماذا يستحق بعض الأوباش هذه الألوف المؤلفة؟

فقلت رغم دبيب الدوار فى رأسى:

ـ فلنأمل خيرا ما دام دولة الباشا مهتما بهذه المسائل.

فنهض بغتة وهو يقول:

ـ ولكن متى يأتى الوزير ؟ .. الساعة العاشرة !، ومتى يأتى مدير مكتبه؟.. الساعة التاسعة..

ونظر فى الساعة ثم جلس مكفهر الوجه. واتجهت عيناه نحو التقويم المثبت بالجدار، الأربعاء ٢ يونيه، ٢٩ جمادى الأولى، ٢٥ بشنش، وتساءل فى ملل:

ـ كم ورقة يجب أن تمضى حتى تصبح الصحة على ما يرام؟

ثم حدجنى بنظرة متحرشة هرب لها قلبى ، ولكن سرعان ما حلت محلها نظرة دعابة وهو يسأل:

ـ ماذا تريد من الدنيا؟

فارتبكت مؤثرا الصمت، ولما آنست انتظاره لجوابى تكلمت بيدى باشارات مبهمة سابقة لسانى، ثم قلت:

ـ أشياء كثيرة!

ـ تكلم!

فاستجمعت شجاعتى قائلا:

ـ مرتب حسن ..

ـ والصحة؟.

ـ لا بأس بها ..

ـ وكم من النقود تريد؟

ـ ما يكفينى ..

ـ يكفيك لأى شئ؟

ـ حسبى الضروريات، والكماليات الهامة، وأن أتمكن من تكوين أسرة ..

ـ والآخرون ألا ينبغى لهم ذلك أيضا؟

ـ نعم لم لا !

ـ عند ذاك ترتاح النفوس من الانفعالات الخبيثة ..

فقلت بارتياح حقيقى:

ـ نعم يا فندم ..

فقال بحدة ساخرة:

ـ كلا !، لا يكفى هذا كله، سيظل هناك هتلر، وتشرشل أيضا، هذه هى العقدة المحيرة، لقد كلفت بالبحث ولكننى كلما وجدت حلا لمشكلة عرضت مشكلة أخرى، وكلما أزلت دملا ظهر دمل جديد، كأن الرحلة يجب أن تشمل العالم كله..

فغمغمت بذهول:

ـ العالم !

ـ نعم العالم، راقب آثار الحرب فى بلادنا ان كنت فى حاجة إلى دليل، أمور كثيرة معقدة، ومشاكل لا حصر لها ، فكر فى أن تنعم بالجبال فى سويسرا فسيقال لك أنها مهددة باجتياح الجيوش الألمانية، أو أن تستظل بشجرة بوذا فى الهند فستجد جوا مشحونا بالتعصب والانفجار، وقد تتطلع إلى زيارة موسكو ولكنك لن تعود، والغلاء؟، ألم يبلغ حدا لا يتصوره عقل؟

ولهث خيالى فى اعياء، ولم أعد أفهم شيئا ولكنى عكفت على النزر اليسير الذى وجدت له معنى فقلت:

ـ الغلاء فاحش جدا، والطماطم نادرة الوجود، أما البطاطس فبات أسطورة ..

ولاح فى نظرته الكحلية تفكير، وشئ من الحزن والفتور، فتساءل:

ـ أتحل هذه المشاكل إذا حددنا المرتبات؟

ـ أى مرتبات يا فندم ؟

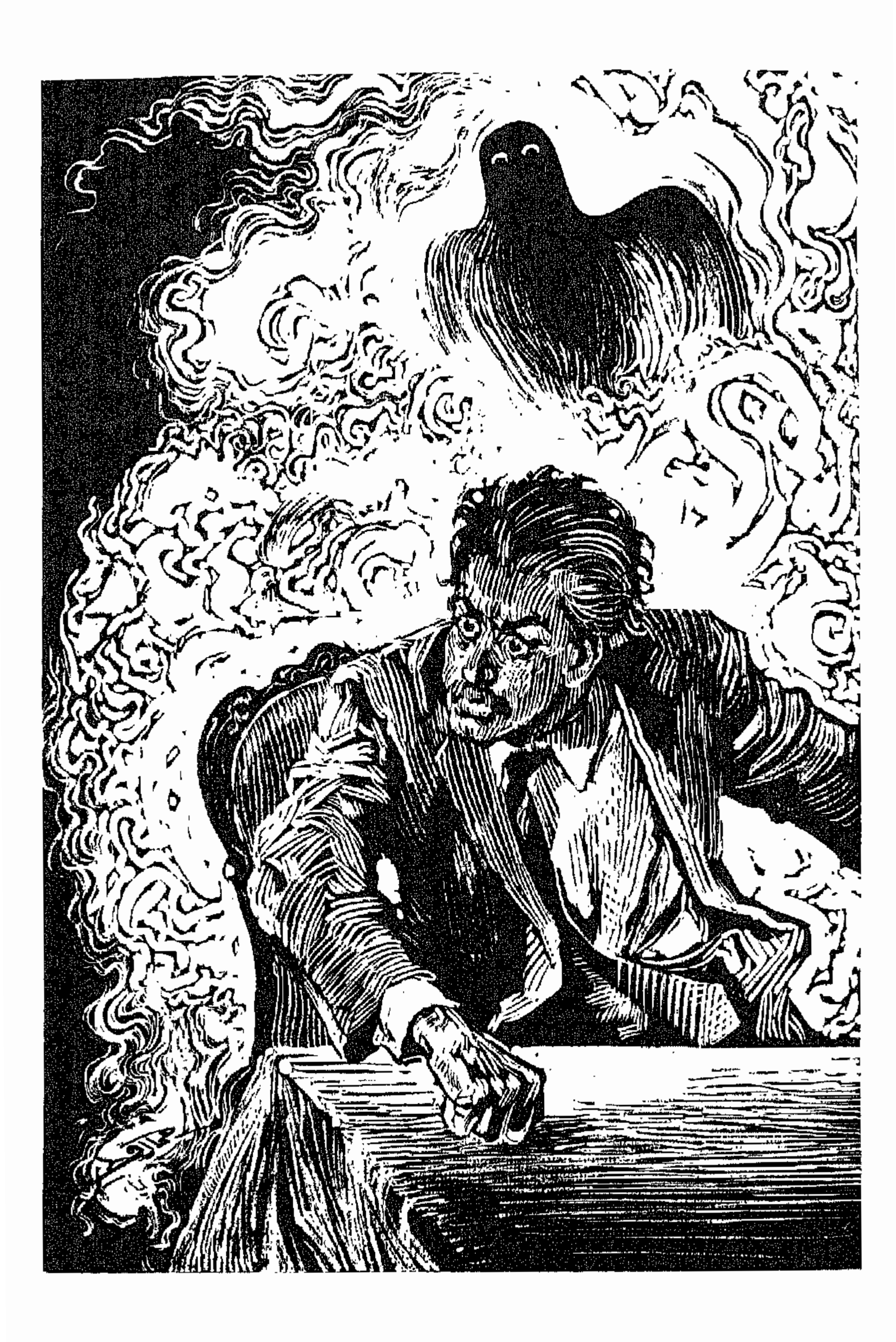
ـ يصدر مرسوم بأن أعلى مرتب لا يجوز أن يزيد عن كذا .

ـ كذا؟

ـ ألا تنتشر تبعا لذلك الطماطم؟، ويظهر البطاطس، وتهبط أجور المساكن؟

ـ ولكن الدنيا ليست موظفين فحسب، هناك تجار، ورجال صناعة وأصحاب أراضى، وهناك أيضا الأجانب!

فهز رأسه كالمتعب وقال:



ـ ويوجد هتلر، وموسوليني وتشرشل، وأكاذيب لا حصر لها، وصرخات زنوج تصم الآذان ..

يا له من شخص غريب، ليس له جبروت المستشارين، ولا جلال الرياسة المخيف، بل وفيه جانب لطيف لا يكاد يفصله عن .. ماذا أقول ؟ عن التهريج إلا خطوة ؟!، بيد أنى قررت أن أستمسك بالحذر الشديد حتى النهاية. وقلت برقة ورجاء:

ـ هذه أمور محيرة، ولا سبيل إلى حل مشاكلها، أو سبيل طويل لا يعلم مداه، ولكن هناك سبيل ميسور قريب المنال لو أقنعت صاحب الدولة مثلا بزيادة علاوة الغلاء ؟.

فحدجني بنظرة استغراب وهو يقول:

ـ أتريد أن تحول مهمتى الخطيرة إلى مجرد مسعى شخصى لتحسين حالتك؟.

فاحترق وجهى بالخجل وقلت متلعثما:

ـ لا أقصد ذلك ولكن .

فقاطعنى بقوة:

ـ ولكن عيبنا أننا نفكر فى أنفسنا ولا شئ غير أنفسنا..

ونظر فى الساعة وهو يقول متسخطا:

ـ الوزير فى الساعة العاشرة، مدير المكتب فى التاسعة، ضاع سدى جميع ما قصدته من التبكير!

وتذكرت بغتة واجبا فاتنى لشدة ارتباكى فهتفت:

ـ لم أطلب لسعادتك القهوة!

ومددت يدى نحو الجرس ولكنه أوقفها بحركة آمرة وساخطة وقال بحدة:

ـ نحن فى مقبرة لا قهوة!

ثم بشئ من الهدوء : :

ـ قلتا أن عيبنا أننا نفكر فى أنفسنا ولا شئ غير أنفسنا، الحق أن لى من القدرة ما أستطيع به أن أبلغ الصفاء، على فقط أن اعتزل العالم وهمومه، وهو صفاء حقيقى أسمع فى سكونه الأبيض موسيقى النجوم، على فقط أن أعتزل العالم وهمومه، لكنى لا أستطيع ، لا أريد. للهموم أيضا أنغامها التى يلتقطها القلب فاما صحة عامة أو لا

صحة على الاطلاق هذه هى عقيدتى النهائية، ولذلك كلفت بالمهمة.

وراح يعبث بشعر المنشة فداخلنى شعور بالحيرة، وتساءلت عما يعنى الرجل، ماذا وراء هذه النظارة الكحلية؟. وعند ذاك فتح الباب وظهر الساعى وهو يقول لى كعادته :

ـ البك المدير وصل.

واستأذنت من المستشار فمضيت من فورى إلى المدير وقلت له:

ـ اسماعيل بك الباجورى المستشار برياسة مجلس الوزراء فى مكتبى.

وانتفض المدير واقفا وهو يتساءل:

ـ اسماعيل بك الباجورى؟

وفى اللحظة التالية كان يصافحه باحترام بالغ مقدما نفسه إليه، ثم ذهبا معا إلى حجرة مدير المكتب، ولبثت وحدى أفكر ولما يذهب عنى روع المقابلة وشجونها.

وواصلت عملى فى مراجعة الصحف وأنا مشتت الفكر، لا يتركز انتباهى فى شئ مما بين يدى. ومضت نصف ساعة

أو نحوها، وإذا بالباب يفتح ويدخل مدير المكتب مهرولا. أقبل نحو التليفون وهو يسألنى:

ـ هل تعرف هذا المستشار؟

فأجبت نفيا . وأدار قرص التليفون:

ـ ألو رياسة مجلس الوزراء ؟، أنا على عباس مدير مكتب وزير الأوقاف، من فضلك هل يوجد فى الرياسة مستشار اسمه اسماعيل الباجورى ؟

ـ . . . . . .

ـ سعادتك متأكد يا فندم !، عندنا شخص بهذا الاسم وهذه الصفة كما هو واضح فى بطاقته ..

ـ . . . . .

ـ آسف على ازعاجكم، وسأفعل ما أشرتم به ..

وضع السماعة دون أن ينظر إلى وجهى الضائع ثم أدار القرص ثانية:

ـ ألو ، سعادتك المأمور؟

ـ ....

ـ علي عباس مدير مكتب وزير الأوقاف، عندنا شخص ينتحل شخصية مستشار بالرياسة، يتحدث حديثا غريبا ويطلب مقابلة معالى الوزير، وبالنظر للظروف الدقيقة التى تمر بها البلاد فأخشى أن يكون من الارهابيين ..

ـ . . . . . .

ـ الواقع أن مظهره مخالف لهذا النوع من الشباب، ولكنى أخاف المفآجات ..

ـ . . . . . .

ـ فى انتظارك يا فندم ، أرجو السرعة ..

وأعاد السماعة وغادر الحجرة وأنا فى حال، ووضح الأمر فى القسم، لم يكن الرجل ارهابيا ولكن كان به لطف. واستدعينا اسرته، واتخذت الاجرءات المتبعة، وقد سمعته وهو يقول للمأمور فى كبرياء غاضب:

ـ الحق على، ما كان أسهل أن أنعم براحة البال، الحق على ..




حادثة

كان يتكلم فى تليفون الدكان بصوت مرتفع ليسمع صوته رغم ضوضاء شارع الجيش الصاخبة. وجعل يميل بنصفه الأعلى داخل الدكان ليبتعد ما أمكن عن الضوضاء، ثم ختم حديثه بقوله «انتظرنى،

سأحضر فورا» وأعاد السماعة إلى موضعها وتناول ـ علبة سجائر هوليود من فوق الطاولة ونقد البائع نقوده ـ ثمن العلبة والمكالمة ـ واستدار فوق الطوار متجها نحو الطريق كان فى الستين أو نحوها، طويل القامة نحيلها، كروى الجبهة والعينين. مكور الذقن، وأما صلعته فلم يبق فوق مرآتها الا جذور شعر أبيض مثل منابت ذقنه. وقد أفصح مظهره عن اهمال صريح نتيجة للسن أو الطبع أو نسيان الذات. على

ذلك كان يتمتع بحيوية مرحة، وتلتمع عيناه بنشاط وابتهاج فأشعل سيجارة وأخذ نفسا عميقا ، وبدا أنه ينظر إلى الداخل لا إلى الطريق، ثم مال يمنه بمحاذاة صف من اللوريات الواقفة لصق الطوار حتى وجد منفذا إلى الشارع. ونفض السيجارة وهو يبتسم، ثم مرق من المنفذ ليعبر الشارع إلى ضفته الأخرى . وما كاد يجاوز مقدمة الورى الأخير حتى شعر باندفاع سيارة فورد نحوه بسرعة فائقة. وقال أحد الشهود فيما بعد أنه كان عليه أن يتراجع بسرعة، وانه لو فعل ذلك لنجا رغم سرعة السيارة، لكنه لسبب ما - لعله المفاجأة أو سوء التقدير أو القضاء - وثب إلى الأمام وهو يهتف «ياساتر يارب» وجرت الحوادث متلاحقة. ندت عن الرجل صرخة كالعواء، وفي ذات الوقت انطلقت صرخات الفزع من المارة والواقفين على الطوار وفوق افريز محطة الترام. ورئى غير آدمي. وصدر عن فرملة الفورد صوت محشرج ممزق وهي تزحف على الأرض بعجلات متوقفة جامدة. وهرع نحو الضحية في ثوان عشرات وعشرات كأسراب الحمام حتى تكون منهم سور غليظ منيع وانتشر في المنطقة الهرج، ولم ينبض جسم الرجل بحركة واحدة، وكان منكفئا على وجهه ولا يجرؤ أحد على لمسه، واحدى

رجليه ممدودة إلى آخرها، والأخرى منثنية منحسرة البنطلون عن ساق نحيلة غزيرة الشعر وقد فقدت فردة حذائها، وتغشاه صمت بخلاف كل شئ حوله كأن الأمر لا يعنيه البتة. الرجل وهو يرتفع فى الفضاء أمتارا ثم يهوى فوق الأرض كشئ وألصق سائق الفورد ظهره بالسيارة من باب الحيطة وراح يخاطب مجموعة من الحفاة أحدقت به على سبيل المراقبة:

- لا ذنب لى، اندفع هو من أمام اللورى فجأة، وبسرعةودون أن ينظر إلى يساره كما يجب..

واذ لم يجد وجها مستجيبا عاد يقول بلهجة خطابية:

- لم يكن فى الامكان أن أتجنب صدمه...

وند عن المصاب صوت كالزفير المكتوم، وتحرك حركة شاملة مباغتة، ثانية واحدة، ثم غرق فى اللامبالاة...

- لم يمت!، حى.

- لعلها اصابة بسيطة..

- لكنه طار فى الهواء والعياذ بالله!

ـ ولو، عفو ربنا كبير.

ـ لا يوجد دم؟

ـ عند فمه، انظر..

ـ كل ساعة حادث من هذا النوع..

وجاء شرطى مسرعاففتح له وقع قدميه ثغرة فى السور الآدمى نفذ منها وهو يصيح بالناس أن يبتعدوا، فابتعدوا خطوات: خطوات فقط، وعينهم لا تتحول عن الرجل ولا تخف حدت طلعها وأشفاقها، وقال أنسان:

ـ سيبقى هكذا حتى يموت ونحن لا نفعل شيئا فأجابه الشرطى بلهجة رادعة:ـ أقل لمسة قد تقتله، وبوليس النجدة والاسعاف فى الطريق إليه..

واعترض الحادث جانب الطريق فاضطرت السيارات الى الالتفاف حول السور البشرى مشاركة الترام فى ممشاه فضاق بها حتى تحركت فى بطء شديد وتجمعت فى صفوف ممتدة ومتداخله وهى تصرخ وتعوى بلا فائدة، ومن ركابها تطلعت أعين إلى الضحية فى اهتمام، وأعين تجنبت النظر فى جزع، وجاء بوليس النجدة وراء صفارته الحلزونية

فاتسعت الحلقة، وغادرت القوة السيارة الى الرجل الملقى، وكان الضابط حاسما وحازما فأصدر أمرا بتفريق المجتمعون، وتفحص الرجل بنظرة شاملة، وسأل الشرطي:

- ألم تحضر الاسعاف..؟

وإذا لم تكن ثمة ضرورة الى سؤال فإنه لم يلق بالا الى الجواب، وتساءل مرة أخرى:

- هل من شهود؟!

فتقدم ماسح أحذية وسائق لورى وصبى كبابجى كان عائدا بصينية فارغة: وأعادوا على مسمع الضابط ما حدث منذ كان الرجل المجهول يتكلم فى التليفون، وجاءت سيارة الاسعاف، وأحاط رجالها بالرجل، وتفحصه رئيسهم بعناية وحذر وهو يجلس القرفصاء، ثم نهض متوجها الى الضابط فبادره هذا قائلا:

- أظن يجب نقله إلى الاسعاف..؟

فقال الآخر بلهجة ذات أثر لا يختلف عن الأثر الذى يحدثه عادة جرس سيارته:

ـ بل يجب نقله الى مستشفى الدمرداش..

وأدرك الضابط ما يعنيه ذلك على حين استطرد رجل الاسعاف قائلا:

ـ أعتقد أن الحالة خطيرة جدا..

وعندما أرقد الرجل بحجرة الفحص بمستشفى الدمرداش كانت طلائع الليل تزحف كالجبال، وفحصه مدير القسم بنفسه، ثم إلتفت الى مساعده قائلا:

ـ اصابة خطيرة فى الرئة اليسرى، تهدد القلب مباشرة...

ـ عملية؟

فهز رأسه قائلا:

ـ أنه يحتضر..

وصدقت فراسة الطبيب فقد تحرك الرجل حركة شاملة كالرعشة، واضطرب صدره أضطرابا متلاحقا محشرجا، ثم شهق شهقة خفيفة واستكن، وكان الطبيبان يراقبانه فالتفت المدير نحو مساعده وهو يقول:

ـ انتهى..

وجاء ضابط النقطة وكان الرجل ما يزال راقدا بكامل ملابسه عدا فردة الحذاء المفقودة، وقال الطبيب:

ـ هذه الحوادث لا تنتهى..

فقال الضابط وهو يومئ الى الفقيد:

ـ وشهادة الشهود ليست فى صالحه!

ثم هو يقترب من السرير:

ـ أرجو أن تستدل على شخصيته..

وشرع فى عمله على حين بسط الشاويش المرافق له ورقة فوق منضدة وتأهب بدوره لتسجيل المحضر، ودس الضابط يده برفق فى جيب الجاكتة الداخلى فأستخرج حافظة نقود قديمة متوسطة الحجم ومضى يفتشها جيبا جيبا ويملى على الشاويش:

ـ خمسة وأربعون قرشا من العملة الورقية..

روشتة للدكتور فوزى سليمان..

وألقى نظرة عابرة على أسماء الأدوية ولكنه لاحظ وجود كتابة على ظهرها أيضا فجرى بصره عليها بلا ارادة فإذا

بها: المواد الحكولية والبيض والدهنيات ممنوعة، ويستحسن تجنب المنبهات كالشاى والقهوة والشيكولاطة، وابتسم الضابط إبتسامة باطنية إذ أن تعليمات مماثلة صدرت إليه من طبيبه فى نفس الشهر!، ثم واصل املاءه وأصابعه تستخرج من الحافظة محفوظاتها:

- مجلد صغير من السور القرآنية..

ولما لم يجد شيئا آخر فى الحافظة قال بضيق:

- لا توجد بطاقة تحقيق شخصية!

وانتقل الى الجيب الداخلى الصغير وما لبث أن قال بفتور:

- ثلاثة قروش ونصف عملة معدنية..ووجد أيضا حقا صغيرا فرفع غطاءه المحكم فرأى مادة غريبة كالبن المسحوق، وأمتلأ أنفه برائحه مسكية، ثم ما لبث أن عطس عطسة من الأعماق، فأعاد الغطاء الى موضعه وقال بعين دامعة:

- حق نشوق..

وتوالى التفتيش وتتابع الاملاء:

- منديل، علبة سجائر هوليود، سلسلة مفاتيح، ساعة يد..



وكان آخر ما عثر عليه صفحة مطوية من كراسة فبسطها فوجدها رسالة لم تغلف بمظروف بعد، فأمل أن يصادف فيها ما يمكن أن يستدل به على شخصية الرجل، نظر أول ما نظر إلى الامضاء ولكنها لم تزد عن «أخوك عبدالله» فعاد الى رأس الصفحة ـ ولكن الرسالة كانت موجهة «أخى العزيز ـ أدامه الله»، فاستاء من هذه المعاندة ولم يجد بدأ من قراءاتها.

أخى العزيز أدامه الله:

اليوم تحقق أكبر أمل لى فى الحياة .

أضطر الى التوقف رافعا عينيه الى تاريخ الرسالة، وكان تاريخ اليوم نفسه ٢٠ فبراير، وامتد بصره فوق الأسطر الى الوجه الباهت المشوب بزرقه مخيفة، المغلق كسر، الجامد كتمثال، ذلك الذى تحقق أكبر أمل له فى الحياة، وتساءل الطبيب:

ـ عثرت على شئ؟

فانتبه الى نفسه وابتسم إبتسامة استهانة ليدل على اعتياده أى شئ وقال:

ـ اليوم تحقق أكبر أمل لى فى الحياة، بذلك بدأت الرسالة!

وعاد إلى القراءة متجنباً النظر الى عينى الطبيب: «فقد انزاحت عن صدرى الأعباء المريرة، انزاحت جميعا والحمدلله، أمنية وبهية وزينب فى بيوتهن، وها هو على يتوظف، وكلما ذكرت الماضى بمتاعبه وكدحه وقلقه وشقائه أحمد الله المنان، وهذا هو النصر المبين.

واسترق النظر مرة أخرى الى الانسان الراحل، الذى لا يدرى أحد مقره، الذى يثير الدهشة بصمته وانعزاله وارتداده العميق الى المجهول، المتاعب والقلق والشقاء والأمل الكبير والنصر المبين!.«وبعد تفكير طويل قر رأيى على ترك الخدمة»، فعلا.

فهيهات أن تتحسن صحتى طالما بقيت فى المدينة،وحسبت الحسبة فوجدتنى أخدم فى الحكومة بثلاثة جنيهات هى الفرق بين المرتب والمعاش، لذلك قررت أن أطلب احالتى على المعاش، وقريبا أعود إلى البلدة ان شاء الله، وسوف أنضم إلى مجلسك الظريف عند عبد التواب شيخ الخفر، أما الأن فكل شئ بخير وليس فى الامكان خير مما كان».

وطوى الضابط الرسالة وهو يقول:

ـ انه موظف كما يفهم من خطابه ولكن ليس به ما يمكن الاستدلال على هويته.

فقال الطبيب:

ـ ستتخذ الإجراءات المألوفة وغالبا ما يجئ أهله فى الوقت المناسب فيتسلمون الجثة من المشرحة..




الظلام

كثيف

الظلام كأنه جدار غليظ لا يمكن أن تخترقه عين . لا شئ يرى البته. انهم يجتمعون فى عدم، ولا صوت إلا ثرثرة الجوزة، والجوزة تدور حتى تتم دورتها فى الظلام فترجع الى المعلم بطريقة ميكانيكية، وكثيرا ما كان المعلم يقول :

- انى أرى فى الظلام، أعتدت ذلك طول معاشرة السجون والخلاء..

أذن فهو يراهم على حين أنهم لا يرونه ولا يرون شيئا وبسبب الظلام يعيش كل منهم فى عالم خاص به مغلق الأبواب عليه، يجيئون من أماكن مختلفة، متباعدة ومتقاربة، لا يدرى أحد عن الآخر شيئا، يشدهم الى هذه الحجرة داء واحد. والمعلم يدعوهم واعدا اياهم بالأمان والستر، وكلما دعا أحدهم قال له:

ـ فى عزبة النخل دارى، وفى حوشها الخلفى فيما يلى الحقول شيدت حجرة مرتفعة، معزولة عن الأرض بلا موصل يفضى إليها، ستصعد إليها على سلم خشبى سرعان ما يطرح تحت أكوام التبن، فهى حصن لا يكبس، ولها من الظلام حولها حصن آخر.

أجل، ها هم معلقون فى الهواء، غائصون فى الظلام، كأنما يعيشون فى الزمن الذى لم تكن الأعين قد خلقت فيه بعد، وكل يد تلامس اليد المجاورة منذ تناول الجوزة ولكن يد من هى؟، أى شخص وأى هوية؟..

ويضحك المعلم ويقول:

نحن مدينون للظلمة بالسلام الذى ننعم به، صدقونى فاننى رجل مجرب!

لم يتوقع يوما أن يناقشه أحد خشية أن يفضحه صوته لدى آخر ممن يكفنهم الظلام، وكان يقول لهم:

ـ لو تعارفتم على ضوء شمعة لتبادلتم أحاديث لا نهاية لها، ولاحتد الخلاف بينكم، ولانقلب المجلس جحيما لا يطاق، وطالب اللذة لا يحب ذلك أما أنا فأمقته مقتا .

وندت من الظلام همس ضحكات مكتومة فقال:

ـ أعرف بينكم أناسا مختلفى الأديان والآراء وها أنتم تمضون وقتا طيبا فى سلام بفضل الظلام والصمت!

ندا الهمس من جديد، لعلهم يسخرون كعادتهم ولو فى سرهم. يا لها من طريقة طريفة لمعالجة التفرقة الدينية والفكرية!. يسخرون وهم لا يعرفون للحجرة التى يترددون عليها شكلا إلا من الشلت والحصيرة المفروشة بينها!. وهو يسعل كثيرا بصوت كالقرقرة:

ـ ان أحدكم قد يلقى جليسه فى مكان فلا يعرفه، قد يكون زميلا فى مصلحة أو عضوا فى أسرة، قد يريد له الخير أو يضمر الرغبة فى قتله، كل ذلك طريف للغاية!

أنهم جميعا غارقون فى الاثم، وحامل الاثم جبان ولذلك فهم يكتمون الضحكات فتضغط وتمط فى صوت فحيح زاحف فى الظلمة، ويضحك عاليا ويقول:

ـ أنى أعرفكم جميعا، الاسم والعمل والمكانة، أما أنا فلا يهمنى شئ، لا يكبل الانسان مثل حرصه المضحك على حسن السمعة، وما سر الحرية التى أتمتع بها إلا السجن والخلاء وسوء السمعة!

يا له من صوت كالقرقرة، ونبرة لا تخلو أبدا من السخرية والثقة بالنفس، وسوء سمعته جدير بتخويف الناس من مجلسه لولا دبلوماسيته في معاملة السلطات، وعنده يجد المصاب مالا يجد عند غيره من الصنف والطمأنينة، ويقبع في الظلام محتكرا الكلام والرؤية، ومرة قال ضاحكا:

- انكم جميعا من السادة، لكم منزلة تخافون عليها، أما الفقراء فلا يخافون على شئ ولذلك فلا مكان لهم عندى، ولذلك فهم لا يؤمنون بالظلام والصمت..

هذا الرجل رغم حفاوته ذو مكانة يؤمن بها المسلمون بالأداء. يتلقون أياديه بإمتنان، ولا ينتشلهم من العدم إلا عيناه المحطمتان لجدار الظلمة، وهو أحدب مغضون الوجه قصير القامة: نيف على السبعين ولكنه ذو حيوية شيطانية. ويسألهم ضاحكا:- لم لا تجعلون من حياتكم كلها امتدادا جميلا لهذه الجلسة؟

ثم قال وكأنه يجيب على سؤاله:

- ستقولون العمل.. الأسرة.. الواجب.

وضحك ساخرا ثم واصل قائلا :

ـ لكنه لا شئ حقيقى إلا الظلام والصمت!

وتنقضى فترة طويلة فى صمت ثم يعود قائلا:

ـ انى أسخر منكم بالكلام الفارغ وأنتم تسخرون منى فى قلوبكم بالصمت، وهذا يعنى أنكم لا تتعلمون، أما أنا فقد حققت لنفسى المعجزة، رغم أنف الدنيا، فلا أسرة لى ولا عمل إذ أن الموزع فى الحقيقة لا عمل حقيقى له، وفى غمرة الذهول وجريان الأيام على وتيرة واحدة تبدو لى الحياة طويلة كثيفة مثقلة بالملل فلا أخاف الموت، من منكم لا يخاف الموت!

وبرغم حقارته، برغم ما يثيره فى النفوس من سخرية خرساء، فقد مس وترا حساسا، ولكن من يصدق أنه لا يخاف الموت!ولم اذن بنى هذه الحجرة المعزولة فى الهواء والخلاء؟ وفى ذات ليلة قال لهم بثقة:

ـ فى هذه الحجرة خلاصة مركزة لحكمة الحياة.

وكف عن الكلام طويلا. وإذا بالجوزة تتوقف عن الدوران، ظنوه ينشد شيئا من الراحة بخلاف عادته، وانتظروا فطال بهم الانتظار فى الصمت والظلام، انتظروا وانتظروا ولكن لم

يجد جديد. استهلوا قدرتهم على الانتظار، تنحنح بعضهم استحثاثا له علي العمل ولكن دون جدوى هل نام الرجل هل أغمي عليه؟، هل مات؟.

وأقربهم الى موضعه مد يده متحسسا مكانه ثم همس بقلق:

- ليس الرجل فى مكانه!

وألصقهم بالباب قام ليفتحه ولكنه همس فى اضطراب:

- الباب مغلق بإحكام.

- لابد من وجود نافذة فليفتش عنها كل فيما يليه من الجدار.

ومضت فترة فى التفتيش ثم تتابعت الأصوات:

- لاتوجد نافذة.. لا توجد نافذة..

واستهانوا بالستر فقرروا اشعال أعواد الثقاب ليتبينوا موقفهم، ولكن أحد لم يجد علبة ثقابه، علبة السجائر بمكانها أما الثقاب فلا أثر له! يمكن أن يقع ذلك مصادفة، سرق الثقاب!. ولكن من السارق ولم سرقه؟. وماذا يراد بهم؟!.

ونادوا المعلم. نادوه بأصوات غاضبة، نادوه بأصوات رعديه ولكن لا مجيب، لا مجيب على الأطلاق، ولا صوت.

- أين ومتى ذهب؟

- من أى منفذ تسلل؟

- ما معنى اختفائه؟

- كيف ولم سرق الثقاب؟

- لعله ذهب لقضاء أمر فدهمه حادث.

- ولم أغلق الباب؟

ولم سرق الثقاب؟

- أهزر وراء ذلك أم شر؟

- نحن مهددون فى الظلام..

وعادوا ينادون الرجل فترتطم أصواتهم بالجدران الصماء. بحت حناجرهم، وكلت قبضاتهم من دق الحيطان، وأطبق عليهم اليأس فى الظلام، ما عسى أن نفعل؟ هل ننتظر إلى ما لا نهاية؟. نستسلم حتى يتقرر مصيرنا؟. وما

مصيرنا؟. هل جن الرجل؟. استكانوا الى مقاعدهم فوق الشلت وهم فى نهاية من الاعياء. كأنهم جروا شوطا قطع منهم الأنفاس أو خاضوا معركة مزقت الأوصال حتى الخوف باخ تحت وطأة التلبد الذى أخلفه الوهن. وتثاءب شخص بصوت مسموع فجرى التثاؤب من فم الى فم، وتساءل صوت:

- ترى هل سرقت علب الثقاب وحدها؟

- وفتشت الأيدى الجيوب حتى صاح أحدهم:

- بطاقة الشخصية!.. لا أثر للبطاقة..

وتتابعت الأصوات:

- وبطاقتى أيضا..

- النقود موجودة أما البطاقة فلا أثر لها.

- ما معنى هذا اللغز؟!

وأكثر من شخص أراد معاودة النداء فخذله صوته، وعاد التثاؤب يتردد فى نغمة ممطوطة مسترخية، ثم ساد فى الظلام صمت ثقيل كأنه النوم أو الموت.

وإذا بصوت يشق الظلام متسائلا فى هدوء:

ـ كيف حالكم؟

تردد الصوت فى الظلام وحده ولكن دون رد فعل فعاد يتساءل مرتفعا درجات:

ـ هوه.. كيف حالكم؟

وندت حركة ضعيفة فى الظلام أعقبها صوت يقول بنبرة فازعة للأمل:

ـ المعلم!... من؟.. المعلم؟

واستبقت الأصوات مرددة: المعلم.. المعلم.. فعاد الصوت يتساءل متهكماً: ـ كيف حالكم؟

ـ تسأل عن حالنا!.. أنت!.. أى دعابة سمجة؟!

ـ كيف حالكم، هذا ما أسأل عنه.

ـ أين كنت يا رجل؟

ـ أنا لم أبرح مكانى..

ـ ألا زلت مصرا على العبث بنا؟

- صدقوني فأنا لم أبرح مكاني طيلة الوقت - كذاب.. تحسسنا موضعك فلم نجد لك أثرا - لم يحرك أحد منكم ساكنا..

- أيها المكابر.. لقد ناديناك حتى بحت أصواتنا ودققنا الجدران حتى كلت أيدينا.

- لم يحرك أحد منكم ساكنا، صدقوني، وكنت طيلة الوقت بينكم!

- مازلت متوهما أنك قادر على العبث بنا!

- صدقوني.. لم أفعل شيئا سوى أن أخذت بطاقاتكم وعلب الثقاب.

- ها أنت تعترف،، كف عن العبث.. لم نكن نعرف أنك نشال ماكر.

- بل أخذتها وأنتم نيام..

- نيام

- أجل وأنتم نيام..

- لم يغمض لأحد منا جفن.

ـ بل نمتم ساعة كاملة على الأقل أنجزت فيها مهمتى.

ـ أنت مطالب بأن تفسر لنا سلوكك الشاذ.

ـ طيب.. خطر لى أن أقوم بتجربة فذة.. خدرتكم بخلطة عجيبة من ابتكارى..

ـ انك تهذى..

ستفقدون ذاكرتكم قبل طلوع الفجر.

ـ رد إلينا مسروقاتنا وأفتح الباب.

ـ واستغرقتم فى النوم ساعة كاملة تبعا للخطة، ثم استيقظتم، وتثاءبتم، وندت عنكم همسات لا معنى لها، ثم تكلمت أنا!

ـ لن يجدى خداعك..

ـ نمتم ساعة بدليل أننى أخذت ما أردت أخذه منكم وأنتم لا تشعرون.

ـ لكننى تحسست مكانك بيدى فلم أجدك.

ـ لم يكن بإستطاعتك أن تحرك يدك.

ـ ودققنا الجدار وناديناً بأصوات كالرعد..

ـ عجزتم عن ذلك كما تعجزون عنه الآن، ولكنكم توهمتم أفعالا لم تخرج فى حقيقتها عن نطاق رءوسكم، كانت أفعالكم كالظلام الذى يلفكم لا وجود حقيقى لها..

ـ ألا ترى أننا غير مستعدين للهزل؟

ـ ستفقدون الذاكرة قبل الفجر، لن يعرف أحدكم نفسه فضلا عن الآخرين!

ـ ألا ترى...

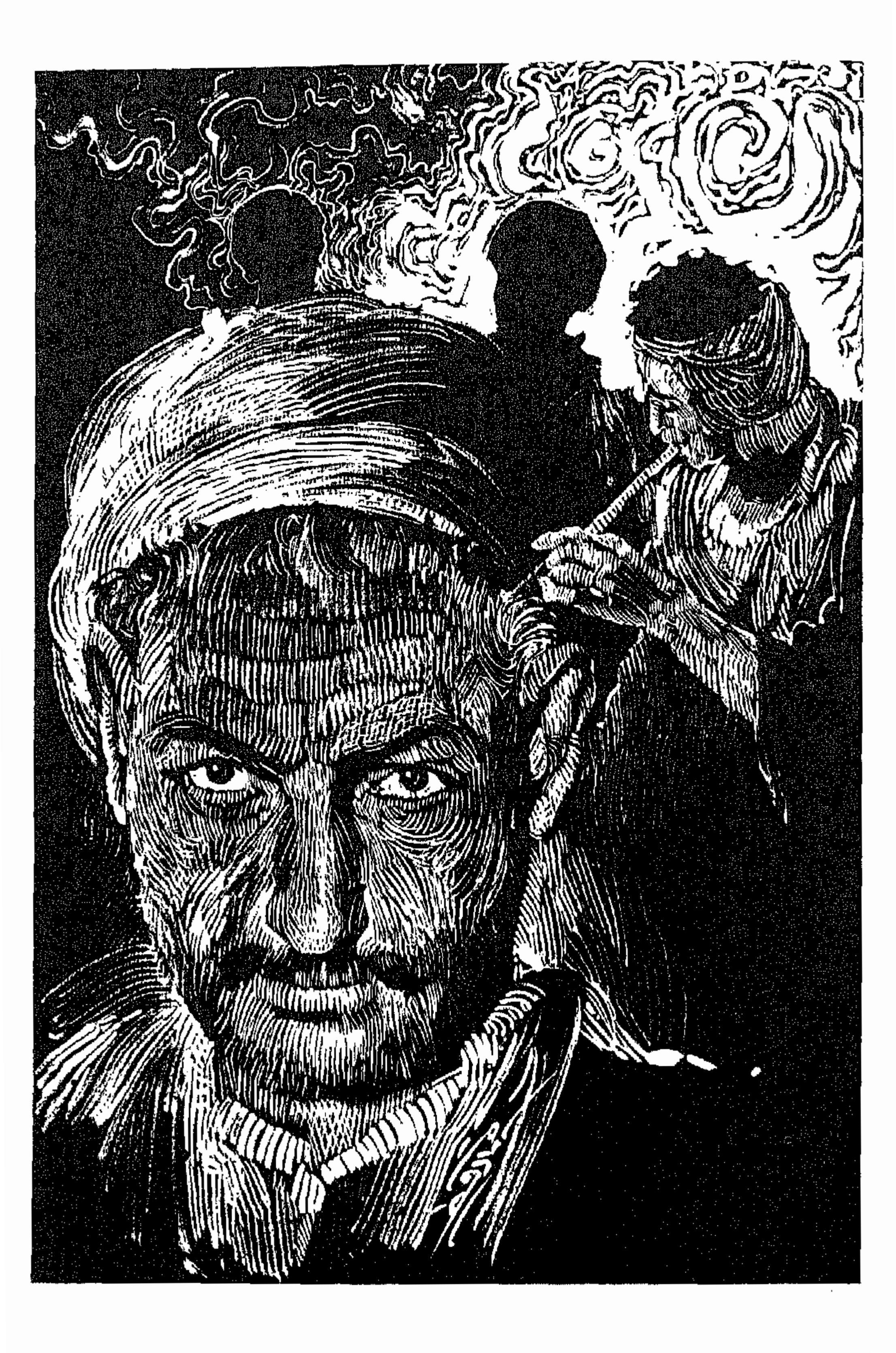
ـ لذلك أستوليت على بطاقتكم، لن يعرف أحدكم نفسه وهيهات أن يعرفه أحد.

ـ اغسل رأسك بماء بارد.. أسرع..

ـ غدا صباحا لن يوجد منكم أحد، ستختفون كما اختفت بطاقاتكم..

ـ هل جننت يا رجل؟

ـ ليكن، ماذا جنيتم من عقلى؟، فلتجربوا جنونى، وسوف أخدر نفسى بابتكارى العجيب، ومن حسن الحظ أننى لا



أملك بطاقة من الأصل، فلنشكر للظلام والصمت والليل أياديها..

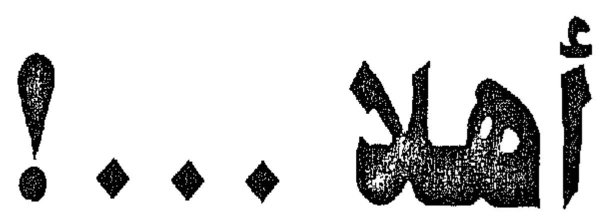
- يا مجنون يا مخرف..

- ستفقدون القدرة على الكلام كما فقدتم القدرة على الحركة، سوف الحق بكم أعدكم بذلك، انطرحوا جثثا فوق الشلت فغدا سيستقبلكم الخلاء أجسادا فتية مبللة بندى الحقول.

وساد الصمت، لم ينبس أحدهم بكلمة، وترددت أنفاس نوم عميق، وجعل ينقل بصره من واحد لآخر ثم تنهد بإرتياح متمتما:

- مبللة بندى الحقول.





أهلاً ...!

كان

دقة أيقظته من شروده، دقة ماسح الأحذية التقليدية، رفع عينيه عن النار جيلة فرآه واقفا يرمقه بعين صياد. مضت لحظة وهما يترامقان ثم تهلل وجه الرجل. هو أيضا ابتسم.

- حمدا لله على السلامة يا بيك.

- أهلا.. كيف حالك؟

وأشار إليه فقرفص عند قدميه فأعطاه حذاءه. لم يره منذ عشرين عاما، منذ انقطع عن المقهى القديم. كان فتى يافعا متين البنيان متدفق الحيوية، يطوف بأرجاء الحى فى رشاقة النحلة، يمسح الأحذية، ويروى النوادر والملح.. ها هو قد جف عوده وتغضن وجهه وأدركته شيخوخة مبكرة.

ـ لم أرك منذ عمر طويل يا بيك؟

ـ الدنيا!

ـ سافرت؟

ـ كلا.

ـ وكيف هان عليك مكانك المفضل؟

ـ ها أنا أرجع إليه عند أول فراغ.

ـ هل مرت الأعوام فى عمل متواصل؟

ـ نعم.

ـ ربنا معك.

منذ عشرين عاما كانا يكافحان عدوا مشتركا هو الفقر على اختلاف موقعهما منه.

ـ لم تتغير يا بيك والحمد لله.

ـ أنت أيضا لم تتغير!

ـ أنا؟!

وضحك فى سخرية ورثاء.

- ربنا يقويك!

- كنت فقيرا حقا ولكن الدنيا كانت رحيمة ويسيرة.

هكذا كانت، ترى هل يخطر بباله أنه يملك عمارة وفيلا وسيارة؟ هل يتصور أنه يخاطب لصا أريبا فى ثوب موظف كبير؟!

- الحياة أصبحت شاقة.

- جدا جدا جدا يا بيك.

- ولكنك مؤمن والإيمان كنز لا يقدر بمال.

- الحمد لله.

- قديما كان العيش يتيسر لك ببضعة قروش حقا ولكن كان يتسلط على البلد إقطاعيون يبذرون على ملاذهم..

- انتهى أمرهم يا بيك ولكن حالى ازداد سوءاً..

- بسبب عملك فقط أما ملايين الفلاحين والعمال فقد تحسنت أحوالهم..

- إنى لا ألقى إلا شاكيا مثلى..

- أنت محصور فى بيئة معينة، هذه هى المسألة..

- ومتى نتحسن بدورنا؟

- كل آت قريب.

- ولكن مرت عشرون سنة؟

- ما هى إلا لحظات فى عمر الزمان.

- علينا أن ننتظر عشرين سنة أخرى؟

- لا أدرى، قد يضحى بجيل فى سبيل الأجيال القادمة.

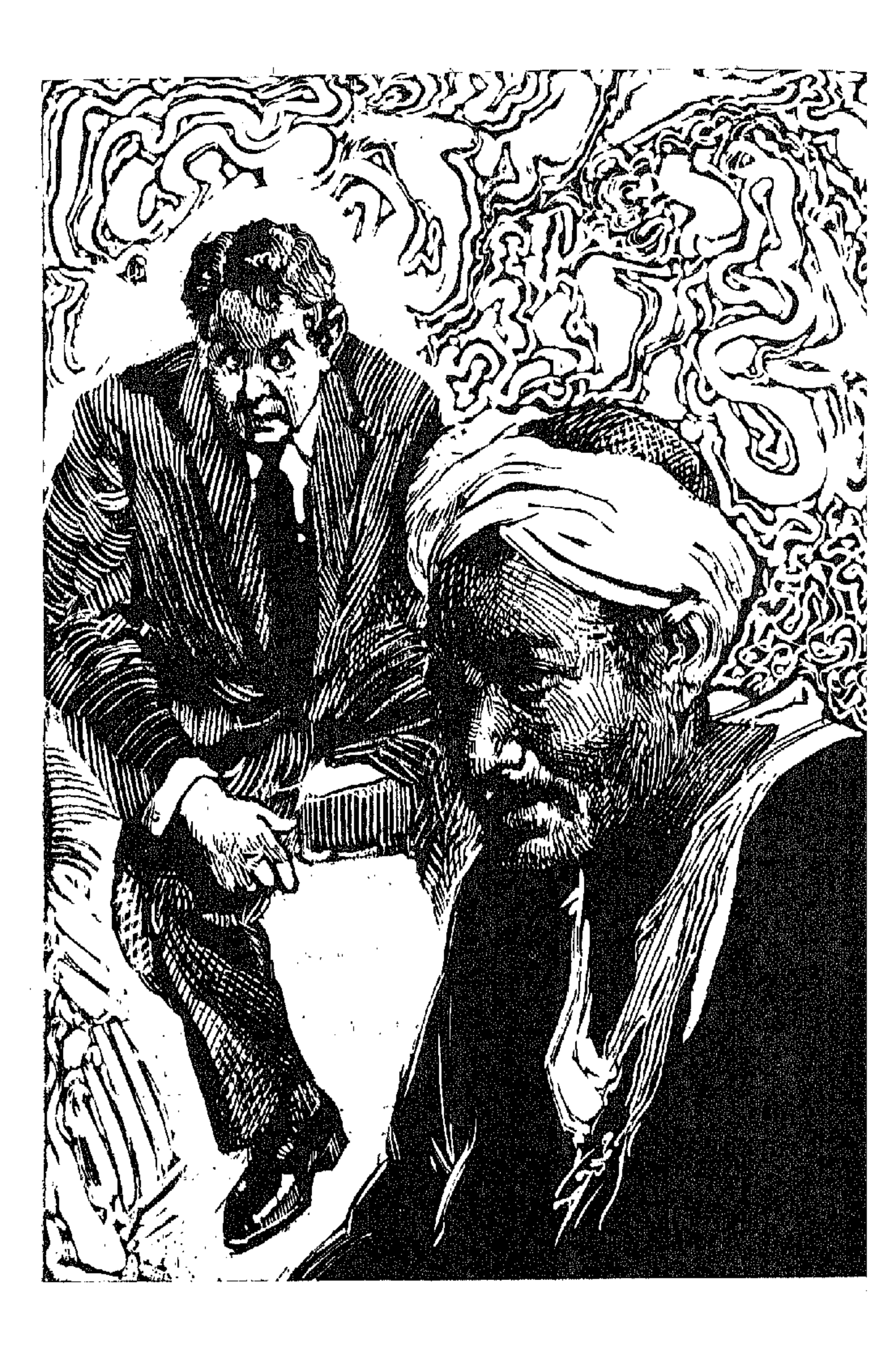
- ولكنى أرى يا بيك كثيرين من المحظوظين السعداء؟

- مظاهر خادعة، لكل شكواه ومتاعبه.

- أراهم فى السيارات الفاخرة كأيام زمان.

- هل صورت أعباءهم القاتلة؟ هل تصورت ما يؤدون للدولة من خدمات؟ ثم أمن يعمل كمن يرث؟

ابتسم مستسلما وهو مكب على عمل فى تكاسل ليطيل



فرصة الحوار، وجعل ينظر إليه بمودة صافية، وفى نظرته تتجلى أشواق للذكريات المشتركة الماضية.

- هل أضايقك يا بيك؟

- أبدا.. هات كل ما فى قلبك.

- الله يكرمك، كنا نضحك ملء قلوبنا من الماضى.

وممكن نضحك الآن أيضا.

- ولكن..

- ولكن داعنا ننظر إلى الوراء، دائما نتوهم أن وراءنا فردوسا مفقودا..

- ألم نكن نضحك من أعماق قلوبنا؟

- تذكر، لقد رقصت يوم قامت الثورة.

- طبعا، سكرت بالآمال، سكرنا جميعا بالآمال..

- ولقد تحققت الآمال، ولولا سوء الحظ، لولا الأعداء.. ماذا كنت تتوقع؟

- زوال الظلم والفقر، لقمة متوفرة، مستقبل للأولاد..

ـ حصل ذلك كله.

ـ دائما نسمع ولكن الأولاد ضاعوا جميعا..

ـ واضح أنك تشكو كثرة العيال؟

ـ إنى أحمد الله..

ـ المدارس مفتوحة لاستقبال الجميع.

ـ دخلوها وخرجوا كما دخلوا، ولم ينجح أحد.

ـ وما ذنب الثورة؟

ـ لا ذنب لها، ولكننا نسكن جميعا فى حجرة واحدة!، وفى المدرسة لا يفهمون شيئا..

ـ إنكم تنشدون معجزة لا ثورة.

ـ إنه حال أبناء الفقراء جميعا.

ـ كلا.

ـ الاستثناء لا يعول عليه.

ـ كان اليأس القديم أنسب لكم!

ـ مازال المال يملك الحظ كله.

ـ المسألة أن الأمور معقدة، أمور الدنيا كلها معقدة.

ـ خلنا فى أنفسنا.

ـ ولكننا جزء من الدنيا.

ـ هل أنتظر حتى تحل مشاكل الدنيا؟

ـ ليس كذلك بالضبط ولكنه تساؤل لا يخلو من حقيقة.

وضحك ليخفف من وقع قوله ثم استطرد:

ـ ولا تنس أننا فى حال حرب.

أرجع فردة الحذاء وتناول الأخرى ثم قال:

ـ وسبق ذلك الهزيمة.

ـ لا داعى لتذكيرى بما لا يمكن أن ينسى.

ـ بعد أن نفختنا الآمال حتى طرنا فى الجو.

ـ قيل كل ما يمكن أن يقال..

ـ متى نحارب يا بيك؟

- هل تنتظر من وراء الحرب حلا لمشاكلك؟

- الحركة بركة.

- ربما اللقمة نفسها لن تجدها.

فهز منكبيه استهانة.

- سنحارب عندما نضمن النصر.

لم ينبس ولكن وضح أنه لم يقتنع.

- هل تعرف معنى الحرب؟... هل تتصور حالنا إذا خرجت المصانع والسدود والمواصلات؟

- نفعل بهم مثلما يفعلون بنا.

- ستتوقف الحياة هنا.

- ليكن، المهم أن نحرر أرضنا.

- هل تهمك الأرض حقا أو أنك تريد الخراب؟

- أريد أن أحيا فى ظل العدل.

يبدو أنك؛ تريد أن تهدمها على رءوس من فيها.

ـ لا والله يا بيك.

خيل إليك أنه يقصده بشيء ما.

ـ المهم النصر لا الانتقام.

ـ أنا لا أفهم.

ـ الأمور واضحة.

ـ يا بيك أنا أريد النصر والحياة المعقولة، خبرنى كيف ومتى يتم ذلك؟

ـ لا أدرى متى ولكنه يتم بالصبر والعمل والإخلاص..

كأنه أصم، يرفض التصديق والاقتناع، وقد أنجز عمله، أعطاه خمسة قروش بدلا من قرشين، تهلل وجهه ودعا له بالستر، واعترف فيما بينه وبين نفسه بأنه فى حاجة ماسة لذلك الدعاء، وبأنه يشاركه حيرته فضلا عن المخاوف التى ينفرد بها وحده، ورآه يهم بالذهاب فسأله:

ـ ما رأيك فيما قلت؟

ابتسم مداريا شكوكه وتمتم:

ـ كلام جميل.

- وحقيقي أليس كذلك؟

- مثل كلام الراديو.

شعر بأنه يذكره بكلام الراديو طيلة عشرين عاما، شعر بأنه يوبخه فأوشك على الانفعال.

- ولكن بروح جديدة تماما.

- نرجو ذلك.

- ألا تريد أن تصدق؟

فرفع درجة صوته ليقنعه بإيمانه قائلا:

- ما دمت تصدق فأنا أصدق.

ضحك ضحكة فاترة مقتضبة، وسأله الرجل:

- هل ترجع إلى المقهى كالأيام الخالية؟

- إن شاء الله كلما سنحت فرصة..

- عندما رأيتك فرحت ورجعت فجأة إلى الشباب.

ثم حياه وانصرف.

وصفق يطلب وقوداً للنارجيلة الخابية.





أهل القمة

قبيلة

من النسـاء. خـاطرة تـراوده كثـيرا وهـو يـنظر نحـوهـن. سفـرة الـغداء مـعدة. مـغرية لـلجـائع. الصحـاف والملاعق والشوك والسكاكين، وعاء البلاستيك المملوء بأرباع الأرغفة، الدورق والأكواب.. هـرعت زهيرة إلى المطبخ لتحضر الطعام من باب الشرفة المفتوح لاح ميدان السكاكيني والجانب الأبعد من البستان الذى يتوسطه تحت سماء الخريف المنقوشة بسحائب بيضاء متناثرة.. نزع قبعته وألبسها فازة البوفيه واتخذ مجلسه فعلت هامته بصورة ملموسة فوق مستوى المائدة لطوله الفارع جاءت زهرة بأوانى الطعام، بالكوسة والشـواء والأرز والمخـلل. تحلقـت النسـاء السـفرة، سـناء زوجـتـه (٣٠ سـنة).. وكـريمـاته الثلاث، أمل (١٠ سوات).. سـهـير (٨ سنـوات)..

لميـاء (٦ سنوات) .. زهيرة شقيقه (٤٠ سنة وتكبره بخمس سنوات).. كريمتها سهام (١٧ سنة)..

تناول خيارة مخللة فدمعت عيناه السوداوان الصافيتان. ما أمهر شقيقته زهيرة. طاهية ماهرة: تضفى على الطعام لذة تعوض ما ينقصه من ترف. يتجنب الثناء عليها أشفاقا من أثارة سناء، يتحاشى قوتها أو بالأحرى عصبيتها. أنه قوى فى القسم، أمام الخارجين على القانون، ولكنه يتحلى بالحكمة فى شقته. السخط لا يفارق سناء منذ اضطرت زهيرة وابنتها للإقامة معه. ورغم أنها تقوم بأعباء البيت كلها. رغم أنها تعمل كطاهية وخادمة، فأنها لم تستطع أن تفوز برضى سناء. لسهام كريمة أخته جمال بديع «إنه يحب جمالها. لم تحظ بمثله كريمة من كريماته. رغم أن سناء لا بأس بها وهو أيضا لا بأس به. رغم ندبة فى صدغه الأيسر من مس رصاصة نجا منها فى أثناء مطاردة عصابة فى الدلنجات.

انتظمت السفرة حركة نشيطة فى جو يسوده الصمت حتى خرقته سناء بصوتها الرفيع:

- عندنا أخبار.

فتساءل فى توجس:

ـ ماذا عندكم؟

ـ بعد الانتهاء من الطعام..

حدثت مشاحنة من المشاحنات التى لا تنتهى. زهيرة وسهام يمكثان هنا بلا ترحيب. لم لا يعترف بأنه هو نفسه لا يرحب بالزحام وأنه يعانى منه من الناحية الاقتصادية. ولكن الواجب هو الواجب. انقلبت الشقة فأصبحت ثلاث حجرات للنوم.. ألغى كارها حجرة الاستقبال وأحل مكانها السفرة.. وجعل من الصالة الصغيرة حجرة استقبال وجلوس. يومها قالت سناء:

ـ بيتى تهدم!

فتساءل بامتعاض:

ـ هل أرمى بهما فى الطريق؟

ـ لم لم تذهب إلى أحد من أخواتك؟

ـ لا متسع لها، وكيف تذهب إلى بيت رجل غريب وأنا موجود؟!

- أنت ضابط.. أبحث لها عن شقة.. ولها معاش الأرملة!

فضحك ساخرا وقال:

- شقة فى هذا الزمان!.. أما المعاش فهو بضعة جنيهات .. لقد مات المرحوم بعد خدمة قصيرة!

- وما ذنبى أنا؟!

- لا حيلة لى أو لك..

من بادىء أمر شعرت زهيرة بالحرج أكثر مما شعرت بالترمل، ومما يزيد الأسى أنها كانت فى زواجها موفقة.. ولكن الموت عاجله. إنه يدرك تماما. يعرف أنها على يقين من أنها غير مرغوب فيها.. لا هى ولا ابيتها الجميلة. وسناء عصبية. لا تحسن أخفاء مشاعرها أو لا يهمها ذلك. ولم يخفف من حدتها أقبال زهيرة على العمل اليومى الشاق. وطالبتها بالمعاش ولكن زهيرة قالت بذل:

- إنه تافه، ولابد من أن تظهر سهام بمظهر لائق فى المدرسة.. وأنا أيضا.. وهو لا يكاد يفى بهذا أو ذاك.

ولاحظ أن شقيقته مستوصية بالصبر والاستسلام.. تسمع وتتجاهل.. تتلقى الأحجار صامتة واجمة.. تحذر

كريمتها أن الانفعال وأدرك أن سهام متمردة نوعا ما . وقد نما إلى أذنيه يوما صوت سهام وهى تقول لأمها:

- متى أنقذك وأنقذ نفسى؟

فتقول الأم:

- زوجة خالك لها عذرها، ألم تكن لطيفة قبل أن تضطر للأقامة معها؟

- لكن خالى.. إنه ممتاز ولكنه ضعيف!

- ليس المفروض أن يكون ضابطا فى بيته أيضا.. الغلاء نار يا سهام كان الله فى عونه..

وأشد ما يزعج سهام هو موقف سناء من مستقبلها. قالت يوما لزهيرة على مسمع منه:

- متى ما حصلت سهام على الثانوية العامة فعليها أن تعمل..

ولم تحر زهيرة جوابا أما سهام فقالت:

- هذا يعنى ضياع مستقبلى..

فقالت سناء بحدة:

- إنك لا تدركين حقيقة الوضع..

فقلت زهيرة:

- لم نتعجل الأمور؟

فقالت سناء بغضب:

- نحن نربى ثلاث بنات، نحن نعانى، عليك أن تفهمى ذلك.

فقالت زهيرة باستسلام:

- لتكن مشيئة الله.

وكان محمد فوزى - الضابط - يقول لنفسه أن القبيلة ممزقة.. ما منهن واحدة إلا وهى ظالمة ومظلومة.. الحياة تبدو أحيانا لعنة طويلة. ويتذكر كم أحب أخواته فيما مضى وخاصة هذه الأخت. وهى ليست أسوأ حظا منهن.. كلهن متعبات ووراء كل سرب من الذكور والإناث.

وتقول له زوجته سناء متحدية:

ـ عليك منذ الآن أن تستعد لزواج بناتك..

فيتساءل ضاحكا:

ـ من الآن يا سناء؟

ـ عليك أن تشترى شقة لكل منهن.

فيضحك ضحكة عالية ويهتف:

ـ أتحدى وزير الداخلية أن يفعل ذلك!

ـ ألا تسمع عن الذين يحتفلون بالزواج فى هيلتون وشيراتون؟

ـ كما سمعت عن أغاخان رحمه الله..

ويداعب أمل كبرى بناته ثم يتساءل:

ـ ماذا ندرى عن الغد؟!

ـ ٢ ـ

عقب الغداء جلسوا فى الصالة، وسأل محمد زوجته:

ـ ماذا عندكم من أخبار؟

ساد صمت غامض كأن كل واحدة تدعو الأخرى للكلام.

وقالت زهيرة:

- أحدهم يطلب خطبة سهام؟

ارتسم الاهتمام فى صفحة وجهه الأسمر. هذا الخبر قد يعنى نكتة سخيفة وقد يعد بفرج غير متوقع:

- من هو؟

- من نفس الحى، طالب بكلية العلوم، يدعى رفعت حمدى..

نكتة سخيفة لا فرج قريب كما يوحى به الجو. تساءل:

- ماذا تعرفون عنه أيضا؟

فقالت زهيرة:

- أسرة طيبة..

فقالت سناء:

- ولكنها فقيرة.

فقالت زهيرة:

- سيكون موظفا بعد ثلاثة أعوام وتكون سهام قد وجدت عملا أيضا.

فقلت سناء:

- الجملة ثلاثون جنيهاعلى أكثر تقدير.

فتساءلت زهيرة:

- هل نتجاهل سعادتها؟

فقال محمد فوزى متهربا:

- أعطونى فرصة للتحرى والإحاطة!

فقالت سناء:

- المسألة واضحة، لن يملك مهرا، لابد من جهاز ولو حجرة واحدة، ثم لابد من شقة، لسنا فى زمن العواطف، وهذا ما يجب التفكير فيه من الآن..

فقال محمد متحرجا:

- أعطونى فرصة..

وعند ذلك قالت سهام بجفاء:

ـ فلنعتبر الموضوع منتهيا:

فرمقها خالها بحنان وسألها:

ـ لا شك أنك تعرفين أكثر مما نعرف؟

ـ أبدا..

ـ أود أن أسمع رأيك يا سهام؟

ـ لقد أوضحت أبلة سناء الحقيقة.

فقالت سناء:

ـ ربنا يرزقك برجل قادر، لا فائدة من الشباب، هذا رأيي..

فقل محمد مجاملا:

ـ المهم رأيك أنت يا سهام!

فقالت سهام بضيق واضح:

ـ لا رأى عندى يا خالى.



- العواطف وحدها لا تكفى..

- نعم..

- إنى على استعداد لفعل ما تشيرين به!

فقال سناء:

- سهام جميلة وسوف تسنح لها فرصة أطيب!

وسألته زهيرة:

- ما رأيك أنت يا أخى؟

فتفكر قليلا ثم قال:

- رأيى أن تصارحه سهام بما سمعت وتسمع رأيه..

فقالت سناء:

- معقول هذا الرأى.

هنا غادرت سهام الصالة إلى حجرتها أما زهيرة فاغرورقت عيناها على رغمها.

سألتها سناء:

ـ هل أخطأنا؟

وبادرها محمد:

ـ سأفعل ما تشيرين به.

فقالت زهيرة:ـ لاحظنا هناك البتة، ولكنى حزينة، البنت راغبة فى التعليم ولن يتاح لها ذلك، وراغبة فى الشباب ولن يكون نصيبها، لاخطأ هناك ولكنى حزينة..

ـ ٣ ـ

قرب مقعده من نافذة تطل على ميدان السكاكينى ليسترد أنفاسه. أى حظ هذا؟. إنه غير راض عن نفسه ولا عن أى شىء. وحسن ألا يكون شابا. إنه زمن المودعين. ولكن.. وانقطعت أفكاره فجأة. استقرت عيناه فوق البستان. هذا الوجه يعرفه تماما. كان صاحب الوجه يتربع على الحشائش مسند الظهر إلى جذع نخلة. هو هو دون غيره. زعتر النورى. ماذا جاء به إلى هنا؟. هل يتربص به الأحمق؟.. لا.. لا... ثمة سبب آخر. شعره حليق. مازال حليقا. مفهوم. لن أمهله.

تناول قبعته وغادر الشقة.

بعد دقيقة واحدة كان يقف أمام المتربع. وثب الرجل واقفا متهلل الوجه. طويل القامة ولكنه دون محمد بقبضة. وجهه نحيل طويل.. حاد البصر.. نابت شعر اللحية.. يرتدى بلوفر بنى قديم وبنطلونا رماديا رثا وصندلا. ابتسم عن أنياب قوية ملونة وهتف:

- أهلا بحضرة الضابط العظيم..

فسأله محمد فوزى:

- متى خرجت من السجن؟

- خرجت من السجن الذى دخلته بفضلك منذ شهر واحد.

- وماذا جاء بك إلى هنا؟

- جئت لأشم الهواء النقى..

- اسمع يا ابن الثعلب، ماذا جاء بك إلى هنا؟

فقال باسما:

- لماذا تكرهنى يا محمد بك؟.. لولاك ما كان الجن الأحمر نفسه يستطيع ضبطى متلبسا ويدخلنى السجن، إنك

ضابط شريف ولكن ربنا أمر بالرحمة، ولا تنس العلاقة الحميمة التى تجمع بين الضابط والنشال، نحن معروفون لكم من قديم، نحن نتبادل التحية، وفى بعض حوادث النشل الحرجة تطالبنى برد الشىء الثمين فأسترده من صاحبه خدمة لك، عظيم، أين الرحمة إذن؟..

فسأله بصرامة متجاهلا مرافعته:

ـ لماذا تجلس أمام مسكنى؟

ـ صدقنى فأنى أحب هذه الحديقة..

ـ زعتر، حذار من المزاح..

ـ عظيم يا حضرة الضابط العظيم، فلأبحث عن حديقة أخرى.

وتفحصه بدقة مليا ثم سأله:

ـ كيف تحصل على رزقك؟

ـ حتى الساعة لا رزق لى.

ـ هذا يعنى أنك متشرد؟

- كلا..

ثم وهو يضحك:

- لا مؤهل لى والحكومة لا تستخدم إلا ذوى المؤهلات..

فهتف به:

- حذار من المزاح يا زعتر..

فقال زعتر بجدية:

- يلزمنى رأسمال يا حضرة الضابط.

- هذا ليس من شأنى، وإذا عثرت عليك مرة أخرى بلا عمل فسوف أقبض عليك كمتشرد!

- الله معنا..

- ادع الشيطان فهو إلهك..

- استغفر الله رب العالمين..

- أجبنى ماذا أنت فاعل؟

فتنهد قائلا:

ـ سأبحث عن عمل.

فقال بهدوء مخيف:

ـ أبعد عن وجهى قبل أن أقرر القبض عليك.

رفع زعتر يده تحية ومضى فى خطوات سريعة كأنه مشترك فى سباق المشى. وقف محمد فوزى يتبعه بعينيه حتى واراه شارع ابن خلدون.

ـ ٤ ـ

حظه من النجاح فى قسم الشرطة أضعاف حظه منه فى بيته، إنه ينتصر عادة على اللصوص والنشالين ولكنه ينهزم فى غشاء الهموم العالمية. وقد أبلغته زهيرة أن الشاب رفعت حمدى يرجو لقاءه فرحب بذلك. واقترحت أن تحضر سهام اللقاء فلم يمانع، ولأنه لا يوجد فى الشقة مكان استقبال مناسب فقد تم اللقاء فى حديقة الشاى بحديقة الحيوان. وجده شابا معتدل القامة بشوش الوجه واضح الرجولة. قال لنفسه ومن واقع خبرته العريقة إنه يوحى بالثقة ويمكن التفاهم معه، قال الشاب:

ـ إنى معجب بشخصية آنسة سهام، جادة ومحترمة، وحظرتك رجل ذو سمعة طيبة جدا..

فشكره محمد فواصل حديثه

- ما يهم العلاقة المقدسة متوفر لدينا..

فابتسم محمد قائلا:

- للأسف الشديد فإنه تغطى ظروف جانبيه على الشروط الجوهرية..

فقال الشاب بحماس العاشق:

- علينا أن نتغلب عليها..

- هات ما عندك..

- أمامى ثلاثة أعوام، عملى مضمون فى التدريس أو المعامل.

- لعل التدريس أفضل فيما يقال.

وأمامي فرصة للعمل فى الخارج أيضا..

- جميل ذلك ولكن يجب أن تعلم أننا لا نملك تكاليف الزواج..

- أعرف ذلك، المهم أن تكمل سهام تعليمها..

- زدنى أيضاحا..

- إنها أيضا ترغب فى دراسة

العلوم، وستجد فرصة للعمل فى الخارج.

دخلت سناء زوجته فى إطار الجلسة فقال بحزم:

- ظروف حتمية توجب علينا توظيفها حال حصولها على الثانوية العامة فى نهاية العام..

- ألا يمكن..

فقاطعه:

- غير ممكن. أنى آسف.فتفكر رفعت مليا مغموما ثم قال:

- فلنعلن خطتنا الآن، ولنؤجل الهموم للمستقبل..

وكان محمد يلحظ سهام من آن لآن ويقرأ موافقتها الصامتة ولكنه لم ير بدا من أن يقول:

- تصرف غير مقبول.

- لماذا؟

إنه يعنى انتظارا طويلا وغير مضمون العواقب..

- أرى أنه ما دامت النية الطيبة متوفرة، فالعقبات تذوب عادة..

- لا أشاركك الرأى، سهام كريمة شقيقتى، ولا أريد أن أعلق مستقبلها على المجهول.

- إنه ليس مجهولا.

- ولكن عندى رأى أفضل..

- ما هو يا سيدى؟

- أن يسير كل منكما فى سبيله دون التزام بعلاقة ما، أنا شخصيا لا أحب الخطبة أن تطول بلا حدود، فإذا وجدت ظروف ملائمة فى المستقبل فلا بأس من الموافقة عند ذاك!

فقال رفعت حمدى بقلق:

- قد يتقدم لها فى أثناء ذلك رجل ما.

- أصارحك بأننى سأعمل ما أراه فى صالحها و..

وتوقف متمهلا ثم قال عادلا عما كان فى نيته قوله:

- ما أراه بهدوء:

ـ أظن من الأنصاف احترام رأيها..

ـ طبعا .. طبعا..

وساد صمت مثقل بالخيبة.. وكانت سحب الخريف منبسطة فلم يهبط من الشمس شعاع واحد غير أن البرودة كانت وانية محتملة .. وابتسم محمد فوزى وقال:

ـ هناك رجاء لا مفر منه..

فنظر إليه الشاب مستفهما فقال بحزم لا يجد مشقة فى دعوته فى أى وقت:

ـ ألا يقع بينكما فى الهدنة المقترحة لقاء من أى نوع كان!

لحظ الرجل سهام فى طريق العودة مرات.. قال لنفسه أنها ستجهش فى البكاء حالما تنفرد بنفسها.. لعن نفسه.. ولعن أشياء كثيرة..

ـ ٥ ـ

كان منفردا بنفسه فى مكتبه عندما استأذن زغلول رأفت فى مقابلته.. نهض باهتمام فاستقبله عند الباب، شد على يده باحترام، وأجلسه أمام مكتبه وهو يقول:

- شرفت يا أفندم!

الرجل فى الأربعين، ولكنه يتمتع بحيوية شاب فى العشرين .. بدين مع ميل إلى القصر، كبير القسمات، داكن السمرة.. معروف أنه رجل أعمال. وأنه ذو صلات، ويتردد اسمه أحيانا عند التبرع لمشروعات خيرية فى الحى.

قال الرجل بصوت مبحوح قليلا:

- كان يجب أن نتعارف من قديم فأنت ضابط ذو سمعة هائلة..

- كانت ستكون فرصة سعيدة لمعرفة وجيه من محبى الخير..

- شكرا، ها هى الفرصة ولكنها ليست سعيدة..

وضحك فابتسم محمد فوزى وقال:

- حادث سخيف..

- ثمنه عشرة آلاف..

وقدم سيجارة فلما اعتذر لعدم التدخين أشعلها وقال:

ـ نشلت حافظة النقود، بمائة جنيه غير الفكة، ولكن توجد بها علاقة مفاتيح ذهبية وذات فص من الماس..

فتساءل محمد:

ـ كيف ينشل رجل مثلك؟.. لابد أنك كنت فى حفل..؟

ـ هو ذلك.. فى جامع القبة الفداوية..

ـ آه..

ـ أعتقد أنه ليس من الميسور بيعه إذا وزعنا نشرة بأوصافه..

ـ سنفعل ذلك على سبيل الحيطة. ولكن النشال يبيعه بثمن بخس لمن يصادفه..

فقال الرجل مبتسما:

ـ إنه عزيز لأسباب شخصية، ما نسبة الأمل فى استرداده؟

فقل محمد فوزى باسما ابتسامة أسيفة:

ـ لا سبيل إلى نشال إلا أن ضبط متلبسا، نحن نعرفهم

ولكن من أين لنا الدليل، وثمة تنبيهات متلاحقة بوجوب احترام القانون..

- إذن أقول عليه العوض؟

- توجد وسيلة مجربة فى الأحوال النادرة. أعطنى فرصة أربع وعشرين ساعة.

- وإذا لم تنفع؟

- سنسير فى الإجراءات العقيمة.

- لكم ولا شك وسائل سحرية أقرأ عن أخبارها أحيانا فى الصحف..

- ٦ -

أمر الضابط باستدعاء زعتر النورى.. جميع المخبرين يعرفون مقهى النشالين المعروف بمقهى حنش فى خلاء الحدائق فيما تتصل بالحقول، وهو الذى أطلق عله المعلم حنش اسم «مقهى الأمراء» بعد الثورة.. ودخل زعتر حجرة الضابط تبوح عيناه الحادقان بنظرة قلقة متوجسة وهو يقول:

- ستجعلنى لعبتك يا حضرة الضابط؟

لم يرفع رأسه عن أوراق بين يديه. تركه وحده في دوامة التوقعات المزعجة. قال زعتر:

ـ أعطني فرصة..

نظر إليه ببرود وسأله:

ـ أعتقد أنك مصمم على تغيير حياتك، قد أصبحت من المصلين!

ـ نعم؟!

ـ رآك البعض وأنت تؤدى فريضة الصلاة.

ـ أنا ما دخلت جامعا قط طيلة حياتى!

ـ جامع القبة الفداوية.

ـ سيدى الضابط أنا لا أفهم شيئا.

ـ ولا أنا!

ـ أنا تحت أمرك..

قال بهدوء:

ـ أريد علاقة لمفاتيح!

تراجع رأسه قليلا. اختفت نظرة القلق. أدرك أنه مطلوب لمفاوضة. تشجع قائلا:

ـ أى علاقة مفاتيح؟

ـ نحن نفهم بعضنا يا زعتر..

ـ مذ خرجت من السجن وأنا أعيش عالة على المعلم حنش..

ـ نشل حافظة الوجيه زغلول رأفت عمل لا يقدم عليه سواك..

فابتسم زعتر وقال:

ـ أنك تطلب مساعدتى..

ـ حذار من الغرور.

ـ لقد قدمت أكثر من خدمة ولكن صدرى ينقبض فى جو القسم..

ـ لا تخش شيئا. أنك تعرف ما تعنيه كلمتى!

ـ كلام رجال.

ـ نعم يا ابن الثعلب..

ـ عظيم.. لنبدأ من الأول، ماذا تريد؟

ـ علاقة رأفت زغلول..

ـ لم أنشلها.

ـ لا أصدقك.

ـ أقسم لك بشرفى.

فضحك محمد فوزى قائلا:

ـ يا ابن الثعلب.

ـ أقسم لك بشرفك أنت.

قال الضابط بحدة:

ـ عليك اللعنة، أتعرف ما يعنيه هذا القسم؟

ـ أعرف..

ـ فمن نشلها؟

- فهز رأسه قائلا:

- سؤال غير جدير بذكائك..

- عندك علم بالموضوع؟

- غير جدير بذكائك أيضا؟

فنظر إليه مقطبا وقد أكفهر وجهه.

قال زعتر:

- يلزمنى وقت للعمل.

- متى تحضرها لى؟

- لا أدرى، وربما ضاعت إلى الأبد..

- أسمع يا ابن الثعلب..

- أعدك بأنى سأبذل جهدى.

- فى ظرف يوم!

- على الله الجبر.

تمهل الضابط قليلا ثم قال:

ـ ربما نالك خير، الرجل ثرى لدرجة الخيال..

قال زعتر بحماس:

ـ لا يهمنى المال، ما يهمنى حقا هو خدمتك!

تمتم محمد فوزى باسما:

ـ يا ابن الثعلب..

المفاجأة أن زعتر طرق باب الضابط عصر اليوم التالى. كانت سهام هى التى فتحت الباب وهى التى أبلغت خالها بقدوم زائر يدعى زعتر. انفعل محمد انفعالا شديدا ولعنه ألف لعنة، غير أنه اضطر لاستقباله ومجالسته فى الصالة، بل وقدم له القهوة. بدأ زعتر مفعما بالحيوية والسعادة. قال:

ـ لا تؤاخذنى على حضورى إلى بيتك إذ أننى أكره القسم.

ـ ماذا فعلت..؟

دس يده فى جيبه فاستخرج منه العلاقة والمحفظة. تمتم محمد:

ـ والنقود أيضا؟

ـ عن آخر مليم، إذا لم تكن فى الاتفاق فدعها لى..

فقال محمد مداعبا لأول مرة:

ـ الغنى غنى النفس!

فقال الآخر بتلسيم:

ـ أمرك.

ـ من الذى نشلها يا زعتر؟

ـ لماذا تسأل يا حضرة الضابط؟

ـ العلم بالشىء ولا الجهل به.

فابتسم الآخر قائلا:

ـ لم أخن زميلا فى حياتى..

ـ حقا؟!.. يالك من رجل عظيم فى الشر.

فضحك زعتر وأشتد لمعان عينيه وقال:

ـ وشرف ربنا لولا الحظ السيء..

ـ هه.. لكنت من رجال الأمن؟

- كلا .. لا يعجبنى عملك..

- حقا؟.. ولمه؟

- أقول لك، أنك تطارد اللصوص لحساب الحكومة بينما الحكومة أكبر لص فى الدولة!

- يا ابن الثعلب..

- إنكم تكرهون قول الحق يا محمد بك..

- هه.. إذن ماذا تفضل من المهن؟

فتفكر قليلا وقال:

- أقرب عمل لعملى الراهن أن أكون مدير بنك!

فلم يتمالك محمد فوزى نفسه من الضحك، فقال زعتر:

- أريد رغيفا محشوا باللحم المحمر..

- طلب غير هين ولكن سيكون لك ما تريد..

فقال زعتر وهو يتنهد:

- ورغم العيش والملح سترجعنى إلى السجن غدا إذا وقعت فى قبضتك!.

طبعا.. لا مفر من ذلك.

- الأمر لله.. من صاحب العلاقة؟

- زغلول رأفت من رجال الأعمال والبر..

- رجل أعمال؟.. طبعا لص ولكن ما تخصص؟

- كل الناس عندك لصوص!

- اسمع يا محمد بك. ستندم ذات يوم على تمسكك بالشرف.

- على فكرة يجب أن أزف إليه البشرى..

وأدار قرص التليفون..

- زغلول بك رأفت؟

- ....

- مبارك.. العلاقة والحافظة معى..

- ...

- وهو أيضا موجود..

- ....

ـ ولكن .. فكر قليلا.. إنه قادر على أن يخطف الكحل من العين..

ـ ...

ـ إلى اللقاء يا أكسلانس..

والتفت نحو زعتر قائلا:

ـ إنه مصمم على رؤيتك...

فقال زعتر باهتمام:

ـ تحت أمره.

ـ كن عاقلا.. وكن حكيما أيضا فى الإفادة مما يجود به عليك..

ـ طبعا.. ولن أنسى المالك الشرعى للمحفظة..

ـ المالك الشرعى؟

ـ الذى نشلها يا محمد بك..

فابتسم الضابط وقال:

ـ أحذر أن تجعلنى أندم على الموافقة. الحظ يفتح لك بابا شريفا يا زعتر.. والآن دعنى أعد لك الرغيف..

ولكن زعتر نهض فى لهفة وقال:

ـ لا تضيع الوقت، شكرا، بنا إلى الرجل، وسوف أشترى اللحم بنقودى الحلال لأول مرة..

ـ ٨ ـ

مضت حياة الضابط بهمومها الشخصية وتوفيقها العام. البيت يسوده غالبا التوتر وقد استغرقت سهام فى دراستها ولكن فى تعاسة ملحوظة. من يدرى فقد ينتصر الحب فى النهاية، سيجد لسهام عملا فى نهاية العام وسينضم مرتبها إلى معاش أمها. وربما حقق رفعت حمدى حلمه، وهاجرت الأسرة الجديدة ـ سهام، رفعت، زهيرة ـ إلى الخارج مجبورة الخاطر. عند ذاك يطمئن على أخته وتحظى أسرته بالاستقلال وتستكن أعصاب سناء زوجته. ما أجمل الأحلام الملطفة للآلام!

وحصلت سهام على الثانوية العامة وراح يسعى لإلحاقها بعمل ولكن التوفيق فى ذلك بدا بعيد المنال. وفى ذلك الوقت جاءه المخبرون بنبأ مثير وهو أن مقهى «الأمراء»

أو مقهى النشالين قد خلا منهم. وكان قد لاحظ قلة ملموسة في حوادث النشل، حتى مضت أشهر لم يتلق فيها بلاغا واحدا. وأمر بالبحث عن مجمعهم الجديد ولكن لم يعثر لهم على أثر. ولم يجد أحد من المخبرين عند المعلم حنش صاحب المقهى تفسير، وفسره هو على هواه فقال إنهم ضاقوا بصرامته ويقظة المخبرين فهاجروا من الحى. وسر المأمور بتلك النتيجة غير المتوقعة وهنأ محمد فوزى عليها.

وكان يغادر نادى الشرطة ذات يوم عندما رأى شابا وشابة فى غاية الفخامة، يغادران سيارة، ويتجهان نحو برج القاهرة. نال من الشاب نظرة عابرة وهو يمضى فى طريقه، ولكنها لم تتلاشى كما توقع. التفت وراءه فرأى الشخصين يصعدان سلم البرج. جعل يتأملها حتى غابا في لامدخل.

ما معنى هذا؟ هل سبق له أن رأى هذا الشاب؟ لقد التقت عيناهما لحظة خاطفة، لم تكن عينا الآخر محايدتين. هكذا خيل إليه؟. لمح فيهما معنى ما، حياة من نوع ما تشى بنوع من المعرفة، وضرب الأرض بقدمه. مستحيل. توقف عن المشى. استدار متجها نحو البرج. تفحص الكافتيريا، ثم صعد إلى الشرفة العليا. رأى الشخصين يطلان على القاهرة

ونسمة عليلة من نسمات الصيف تداعبهما. اقترب حتى وقف وراءهما. سمع الشاب يقول للشابة بصوت يسمعه هو كأنما هو المقصود به:

- ألم أقل لك أن له عينين لا تخدعان؟

فهتف محمد فوزى:

- زعتر النورى..

فاستدار نحوه باسما عن أسنان بيضاء وهو يقول محتجا:

- محمد زغلول من فضلك؟

وأشار إلى الفتاة قائلا:

- صديقتى بهية..

فتمتم الضابط:

- جلجلة!

- قلت بهية من فضلك..

- جعل ينظر إليهما بريبة فضحك زعتر وقال:

ـ بهية اسم اختارته بنفسها أما أنا فكونت اسمى الجديد من اسمك «محمد» واسم البك زغلول، بصفتكما صاحبى الفضل الأول..

فقطب محمد فوزى متسائلا:

ـ ما معنى هذا؟

ـ عن أى شىء تسأل؟

ـ أنت تفهم، ما أعنيه تماما يا زعتر..

وضح له عن قرب أن فخامة الملابس وصقل الوجه والأطراف لم تغظ تماما عن الابتذال فى الحركة والهيئة، وتقدمت بهية (جلجلة) خطوة بجمالها الشعبى الصارخ وتساءلت محتجة:ـ

ـ ماذا فعلنا لتحقق معنا؟

وسأله زعتر النورى بشىء من العظمة:

ـ بأى حق تتعرض لنا يا حضرة الضابط؟

فقال الضابط:

ـ أريد أن أكتشف الجريمة المستترة وراء هذا التغيير.

ـ إنك تخاطب رجلا من رجال الأعمال. وهذه امرأة من نساء الأعمال..

ـ نحن نعمل فى ضوء النهار..

ـ لن يخفى سر.

فضحك زعتر وقال:

ـ يؤسفنى أن يكون أول لقاء لنا على هذا النحو، لنا ماض مشترك، وفضلك على عميم، أنت الذى سلمتنى مفتاح السعادة، فماذا يثيرك على الآن؟. دعنى أدعوك لفنجان شاى.. وليطمئن قلبك.. وهاك بطاقتى الشخصية إذا شئت..

فقال محمد بذهول:

ـ إنه عام واحد.

ـ ما قيمة الزمن؟.. صفقة واحدة تحولك من دنيا إلى دنيا، الفضل لك ولزغلول رأفت أيضا، ما زلت أعد من رجاله. ولى أيضا رجالى..

ـ تهريب؟!

ـ رجعنا نردد ألفاظا لا معنى لها، اسمها الوحيد «تجارة».. حتى لو أصررت على الألفاظ الميرى فربما كانت

تهريبا قبل أشهر لكننا اليوم فى عصر الانفتاح، لا تهريب ولا ديلولو.. تفضل بزيارتنا.. وانظر إلى تلميذك بنفسك..

فقال الضابط ببطء:

ـ زعتر..

فقاطعه بسرعة:

ـ محمد زغلول من فضلك..

ـ أنت تعرف من هو محمد فوزى.

ـ طبعا.. أعرف أنك ستتحرك.. أعرف أنك تحلم بإرجاعى إلى السجن.. ولكن الحقيقة ستكشف لك .. ستعرف أننى رجل شريف.. آمل أن نكون أصدقاء.. لست دون زغلول رأفت استحقاقا لذلك..

وقالت بهية بدلال:

ـ وأنا أيضا أريدك أن تكون صديقا لى!

وتساءل زعتر:

ـ البضائع المهربة كانت تملأ الطرقات فلم لم

تصادروها؟.. لم لم تقبضوا على مروجيها؟.. كنا نجول فى الميدان يحرسنا رجال الأمن.. ووراءك واحد منا شخص ذو مقام.. انتهى عصر المغامرة وما نحن اليوم إلا تجار شرفاء.. ثم إنك صاحب الفضل.

- أضجرتنى بقولك هذا..

- لم يغضبك قول الحق؟.. أنا أيضا نشلت ذات يوم ولكنى استردت مالى بقوتى الذاتية، لم ألجأ لتسترد بقوتك مال لص كبير من نشال مسكين.

وهتفت بهية:

- صديقك زغلول رأفت لص عظيم..

فانتهزها زعتر قائلا:

- اقطعى لسانك؟ إنه بحكم القانون الجديد تاجر عظيم!

فقالت مخاطبة محمد فوزى:

- نحن ندعوك إلى فنجان شاى.

فقطب الضابط متحولا عنهما فقال له زعتر:

ـ يؤسفنى ألا تلبى دعوتنا، ولكن لا تبدد قوتك فى لا شىء..

ـ ٩ ـ

اقترب من الخلاء المشارف للحقول فتبدى له مقهى «الأمراء» فى عزلته ورثاثته. حجرة حجرية يتقدمها فناء ترابى مسور بالصبار. بدا كالخالى بعد أن تخلى زبائنه الأصليين عنه. وقف فى الفناء المهجور فلمحه الحنش ـ العجوز الأحدب ـ وسرعان ما هرع إليه مرحبا وقلقا فى آن. جلس محمد وهو يشير للكرسى المقابل داعيا العجوز للجلوس وهو يقول:

ـ لا تقدم شيئا، لى معك حديث يا حنش.

جلس الحنش، لم يزايله القلق. قال:

ـ لم أرك منذ زمن، آخر مرة كنا فى عاشوراء.

ـ أذكر ذلك.. ولكن أين أصحابنا؟

أخذ يطمئن نوعا ما فقال:

ـ ذهبوا ولم يرجعوا.. اختفوا تماما..

رماه بنظرة طويلة وقال:

ـ عرفت ذلك، ولكن أين ذهبوا يا حنش؟

ـ الله وحده يعلم.

ـ ولكنك تدرى أشياء ولاشك..

ـ هل وقعت حوادث نشل؟

ـ كلا.

ـ ماذا يهم من أمرهم بعد ذلك؟

هذا شأنى يا حنش.

ـ والله..

فقاطعه بنبرة آمرة:

ـ هات ما عندك..

اطمأن العجوز تماما وشعر بأهميته، قال:

ـ لقد أقلعوا عن النشل، غدا سيختفى اللصوص جميعا..

هات ما عندك..

فضحك العجوز عن فم خال وقال:

- أنت السبب يا حضرة الضابط..

- ذلك بالنسبة لزعتر النورى. إنى أسأل عن الآخرين..

- قيل أن زعتر ذهب للقاء الرجل الذى نشله.

- أعرف ذلك طبعا.

- وإذا بالحال يتغير تماما، لم يعد عتريس النورى إلينا.. انتظروا، انتظروا طويلا ولكنه لم يعد وكادت جلجلة تجن..

- ثم؟

- ظنوا أنه قبض عليه.. أخذوا يتناسونه.. حتى جلجلة بدأت تستجيب لعشاق آخرين.. حتى كان يوم..

وسكت الرجل ليشحن الضابط بالشوق. فقال هذا باستياء:

- استمر يا عجوز.

- كانوا فى الداخل يقامرون حين دخل فجأة سمسون العفش مضطربا بفرحة طاغية، لوح لهم بحافظة نقود فاخرة

وتساءل: «لمن هذه؟». فأجابه أحدهم متفكها: للسفير الأمريكى، ولكنه قال بهدوء: إنه عتريس النورى. ملكهم ذهول شامل. أقبلوا نحوه وفى مقدمتهم جلجلة، أقسم لهم على صدقه. أين هو، لماذا لم يعد، وكيف نشلته، وراح الرجل يقول: «رأيته فى ميدان رمسيس. كان يغادر سيارة. ليس عتريس الزمان الأول، شخص آخر تماما، أى وجاهة وأبهة، شككت فيه طويلا حتى عرفت مشيته وسمعت صوته. إنه عتريس النورى. ماذا حصل له؟ كل شىء تغير حتى جلده. تغير لونه أيضا كأنه نقع فى الماء عاما. هل استولى على ثروة الرجل الذى دعاه ليكافئه؟ هل نشل البنك الأهلى، وهو يقصد دكان غيار، إنه محترم ابن الدائخة. فى الحال رسمت خطة لنشله، نشلته فى الدكان. هذه هى الحكاية . وصاحت جلجلة: الخائن ابن الخائنة. أين يقيم؟ ماذا يعمل؟ ولكن سمسون العفش لم يكن لديه مزيد. وصاحت جلجلة: لابد من العثور عليه.. وأكثر من صوت صاح: لن يفلت ولو اختبأ فى جبال الواق الواق. وفيما يتبادلون الرأى إذ بدا عتريس النورى فى مدخل الحجرة وهو يرمقهم بنظرة ثقيلة محتدمة بالسباب والسخرية.

وسكت العجوز ليستريح ويسعل ما شاء له السعال فصبر محمد فوزى حتى استطرد:

- دخل منفوخا بالأبهة. تبادلوا النظرات فى صمت هادىء. حتى خرقته جلجلة متسائلة: «من سعادة الباشا القادم؟». فقال بهدوء: الحافظة أولا ثم نتكلم. فسأله سمسون العفش: عن أى حافظة تتكلم؟ فثقبه بنظرة من عينيه الحادتين وقال: هو أنت يا ابن الخائنة! قلبى قال لى.. فقالت جلجلة: «قلب المؤمن». فقال زعتر لسمسون: «الحافظة واعتذر لعمك».

- أنت خائن!

- زعتر خائن!

- أين كنت؟.. تقطعنا للنقود.. من أين لك هذا؟

- العمل الشريف!

هزت جلجلة وسطها وهتفت:

- ادعوا له.. ادعوا له..

- العمل الشريف.. عمل الناس الأجلاء.. هات الحافظة..

- أقسم لك بشرفى.

قاطعه مقهقها:

ـ احتفظ بشرفك وهات المحفظة.

فقال سمسون بتسليم.

ـ لى مكافأة!

ـ دع ذلك للنساء، هات الحافظة لنتكلم فى المفيد!

فرمى بها إليه سمسون وهو يقول:

ـ نار فى جثة الخائن.

ـ الله يسامحك.. كان فى خطتى أن أزوركم فى الوقت المناسب..

فتساءلت جلجلة:

ـ ماالوقت المناسب؟

ـ هو وقت الخير، لا يتقدم ولا يتأخر.

ـ ومتى يجئ؟

ـ عما قريب جدا.

ـ ماهو العمل؟

ـ تجارة.. بضائع تجئ من أوروبا..

ـ تهريب؟!

ـ الصبر.. موعدنا بعد شهر واحد..

وفى الميعاد ياحضرة الضابط ذهبوا جميعا ولم يرجع منهم أحد.

ترامقا صامتين، ثم تساءل الضابط:

ـ أين هم الآن؟

فقال العجوز بقلق:

ـ أنهم خارج منطقتك..

ـ نعم.. هل تعلمنى واجبى؟، أين هم الآن؟

ـ أنهم يعملون فى ضوء النهار وتحت حماية الشرطة..

ـ ألم أقل لك أنك تعرف أشياءكثيرة؟

فضحك العجوز وتساءل:

ـ ألم تسمع عن سوق ليبيا؟

ـ كلا.

ـ أنه فى القلعة ياحضرة الضابط.

ـ ١٠ ـ

يموج سوق ليبيا بالخلق والحركة والأصوات. يغمره ضوء الكلوبات الأحمر المدلاة من رءوس أعمدة مغروسة فى الأركان. أمواج تتلاطم من النساء والرجال مصبوغة الوجوه بالأضواء المركزة. قال الضابط أنهم اختاروا مكانا مناسبا فى محيط السوق مكتظة بالصابون والقوارير والعلب والبرطمانات والأدوات الكهربائية والألكترونيات. وراء كل كشك صفت الفريجيديرات والسخانات وميكفات الهواء والنجف فى سرادقات، بهر الضابط بألوان البضائع. بجنون البيع والشراء. بالمهد الذى يلد أناسا جددا. هاهى وجوه العصابة التى أختص دهرا بمراقبها. خلقوا من جديد. أنهم يرمقونه بدهشة لاتخلو من قلق ثم ينسونه تماما. الشرطة تحفظ الأمن. والنشالون أصواتهم مرتفعة. سيختفى اللصوص ويستغنى بالتالى عن رجال الأمن! ماعلاقة زغلول رأفت بهذا كله؟ أصبح هؤلاء من الأغنياء أما هو وأضرابه فيغوصون فى غمار الفقراء. هاهو زعتر، محمد زغلول

أستغفر الله. معه جلجلة فى كشك واحد. وجم الرجل عندما رآه. هاهو يقبل نحوه مرحبا مرحبا.

ـ أهلا محمد بك.. خطوة عزيزة!

ـ أهلا بك..

ـ أنتقلت إلى منطقتنا؟

ـ كلا.

ـ جئت للشراء؟

ـ للفرجة.

فتحت له جلجلة علبة كوكاكولا مستوردة وقدمتها مبتسمة، قال:

ـ شكرا، لاأحبها..

تناولها زعتر وراح يشرب قائلا:

ـ أنى أعرف مايحرجك!.. لعلك سررت بما ترى، تاب الله علينا!

ـ حقا؟.. من النشل إلى التهريب؟

فضحك زعتر قائلا:

ـ عملنا مشروع، انظر إلى الشرطة، نحن تجار، أناس يحتجون إذا الفقراء اغتنوا..

ـ الحال معدن..

ـ سمسون دفع أمس خلو رجل لايستهان به وأصبح من سكان المنيل!

وقالت جلجلة:

ـ عندنا بضائع تجنن.. شاهد بنفسك..

فقال فى هدوء:

ـ لست فى حاجة إلى شئ..

فسأله زعتر بقلق:

ـ لم شرفتنا؟

ـ العلم بالشئ ولا الجهل به..

ـ اسمع ياحضرة الضابط، ماكان تهريبا أصبح بفضل الانفتاح تجارة مشروعة.

فضحك محمد فوزى ولم ينبس فواصل زعتر:

ـ سيكون أبناؤنا ضباطا ووكلاء نيابة..

ـ ولم ترجعهم إلى الفقر؟

فتمادى الآخر فى حماسة قائلا:

ـ ماذا كان الأمراء والباشوات قبل أن يصيروا أمراء وباشوات؟.. كانوا لصوصا، فنحن أصل الوجود يامحمد بك.. ولكن أناسا يكرهون أن يفعل أبناء الشعب مثل الأمراء والباشوات..

ـ يالها من آراء!

ـ دعنا من هذا كله.. ألا يلزمك فريجيدير؟.. معصرة؟.. ريكوردر؟.. مقويات، كل شئ تحت أمرك، ومن غير فلوس..

ـ أنك لكريم ولكنى لاأريد شيئا..

فمدت جلجلة عنقها بدلال وأغراء وتساءلت:

ـ ألا يعجبك شئ؟

فتساءل الضابط:

ـ هل تزوجتما؟

فقال زعتر:

ـ كلا.. أنها تهددنى بالقتل..

ـ لم؟

ـ رأيى أنه يجب أن أتزوج من أسرة!.. وعليها هى أن تبحث هى أيضا عن عريس لقطة..

قال محمد فوزى لنفسه أنها جميلة، حتى ابتذالها جذاب، ليس فى بيته من يضارعها فى جمالها الا سهام.

وقالت بهية «جلجلة»:

ـ إنه وغد ويستحق الاعدام.

فقال الضابط:

ـ أنها لمشكلة..

فقالت جلجلة:

ـ لا أهمية لذلك، المهم أن نقدم لك هدية.

ـ شكرا، لا عودة إلى هذا الحديث.

فقال زعتر:

ـ صدقنى لا يقضى بالفقر على الإنسان الا عقله.

وقالت له جلجلة:

ـ لو عثر على رجل قوى مثلك لزهدت فورا فى هذا الوغد..

فتجاهل قولها ضاغطا تأثره الباطنى.

فعادت تقول:

ـ إذا لم تقبل هدية مستوردة فخذنى أنا هدية محلية.. ما رأيك؟

فقال زعتر:

ـ وتهدينى حلا لمشكلتى معها..

فسأله محمد فوزى:

ـ هل صادفتك متاعب أيام التهريب؟

ـ لا تكاد تذكر، كل كشك يكمن وراءه رجل هام يحميه من بعيد..

ـ لا تبالغ.

ـ هى الحقيقة، أنت نفسك رجعت إلى زغلول رأفت ماله الضائع..

ـ رجل لا غبار عليه؟

ـ صدقنى ليس فى ثروته مليم حلال واحد..

ـ ماذا فعل معك؟

ـ وظفنى عنده فى أعمال تهريب تحتاج إلى جرأة خاصة. تعلمت أشياء وأشياء، استعملت بدورى العصابة، اليوم العمل كله مشروع..

وسألته جلجلة:

ـ هل لو كنت فى منطقتنا أيام التهريب كنت قبضت علينا؟

ـ طبعا.

ـ رغم الحماية؟

ـ بلا تردد.

فقال زعتر ضاحكا:

ـ يعملها ولو تعرض للنفى، أنا عارفة.

فقالت جلجلة:

ـ يالك من حبيب قاس، وهل كنت تقبض على زغلول رأفت؟

ـ ربما قبلكم..

فثنت رقبتها فى مرح وقالت:

ـ ستصبح المدينة بلا لصوص، ماذا تريد أكثر من ذلك؟

ـ أو ستصبح كلها لصوصا..

ـ النتيجة واحدة.

وقال زعتر بحرارة:

ـ بودى أن أغرقك فى السعادة!

فتمتم في فتور:

ـ شكرا..

تصافحا، هتفت جلجلة مخاطبة زعتر:

ـ قل له أني مستعدة أن أوصله بسيارتي إلى أي مكان..

لوح لهما مودعا ومضى..

- ١١ -

ما معنى ذلك؟ ها هو العبث يتأبط ذراعه متدثرا بالبسمات الحمراء. لاحظ الضابط أن صوت مرافقه مبحوح مثل صوت حنش. سأله عن السبب فأجاب بأن صوته بح من كثرة الخطب، ولأنه يؤذن كثيرا داعيا المصلين إلى سوق ليبيا. وأشار إلى الشجرة الضخمة تتوسط الميدان الصغير في شارع البرج وقال للضابط:

ـ أي ضخامة، ما عمرها؟ ستعيش بعدك طويلا، أنها لا تعرف القيود، تحيا حياة مطلقة.

وأشار أيضا إلى كلبين يتلاعبان وتمتم:

ـ يعيشان مثل الشجرة، حياة مطلقة، لا يعرفان الضمير ولا يخافان الموت..

فقال الضابط :

ـ ولكنه الإنسان، وحدة

ـ حماقة مقنعة بالجلال!

ـ الجلال!

ـ هو السجن.

ـ لكنه الإنسان، لا يعرف ذلك إلا الإنسان. إلا يعنى ذلك شيئا؟

ـ لا يعنى شيئا .

ـ هو وحده.

ـ الإنسان الحقيقى مثل الشجرة، مثل الكلبين.!

ـ إنه وحده، هنا يكمن سره.

ـ هبك مشرفا على الغرق ولا نجاة لك إلا بالتضحية بآخر، ماذا تفعل؟

ـ ساعة الغرق يسيطر الحيوان.

ـ هذه هى الحياة..

ـ كلا، إنها جريمة يجب التكفير عنها..

ـ هل تعرف الجريمة بالفطرة؟

ـ كفى، على أحدنا أن يتلاشى..

* * *

تهبط النقود بلا حساب فى ميدان ليبيا، السماء تمطر هدايا. الوقاحة تصان الهيبة. طيب، ها قد تغير كل شئ. ستسيطر على الحياة بدل أن تسيطر هى عليك. تتحسن علاقات الكائنات. تستقل سناء ببيتها ثم تنتقل إلى بيت أفضل، يتورد مستقبل أمل وسهير ولمياء. تغدق البركة على سهام وزهيرة. تنطلق سيارة بالأسرة يوم العطلة. الفضلاء يعملون بالرذيلة، الأرذال يحلمون بالفضيلة.

* * *

كان بالنادى عندما رأى زغلول رأفت قادما نحوه. انتحى به جانبا فجلسا فى جانبا فجلسا فى جانب من الحديقة.

ـ فقدت شيئا ثمنيا؟

فقال زغلول باهتمام:

ـ كلا، الأمر أجل..

ـ ماذا فعلت بزعتر؟

ـ كافأته بعمل شريف مريح.. ولكنه طماع..

فضحك محمد فوزى وسأله:

ـ ما عدد الأعمال الشريفة فى نظرك..

فقال باهتمام متزايد:

ـ محمد بك.. أنى هنا لغرض هام.. أنك رجل شريف.. صاحب جميل.. حسن.. على أن أرد الجميل..

ـ خير؟

ـ الأمر يتعلق بزعتر.

ـ سرقك؟

ـ كلا.. لكنه شرع فى سرقتك أنت.

ـ ماذا تعنى؟

ـ الأمر يتعلق بكريمة أختك..

قطب محمد فى حيرة شديدة

ـ كريمة أختى؟

ـ إنه يحوم حولها.. يحوم حولها باعتباره الوجيه محمد زغلول..

تغير وجهه تماما. ارتفق الخوان بساعديه متسائلا:

ـ ماذا؟

ـ إنى على يقين مما أقول..

ـ كريمة شقيقتى آية فى العقل والأخلاق..

ـ لم أقل خلاف ذلك..

ـ لو تعرض لها باساءة لشكته إلى..

ـ لا يتعرض لها بما يسوء.. إنه يحوم حولها كرجل شريف!

ـ الوغد.

ـ خفت أن تخدع الفتاة به ونحن لا نملك قلوبنا.

ـ شكرا لك تحذيرى.

- ١٢ -

بدا محمد فوزى كئيبا متجهما. من أول نظرة لاحظت ذلك سناء وزهيرة وسهام أما الصغيرات فيئسن من ملاعبته. ونطق بنبرة مفعمة بالغضب:

ـ سهام.

نظرت إليه الفتاة بذهول فقال:

ـ ما هذا الذى يقال عنك؟

وسكت من شدة الانفعال ثم قال بازدراء:

ـ عن رجل له مظهر الوجهاء يدعى أن اسمه محمد زغلول..

فقالت زهيرة:

ـ لا شئ يستحق الغضب ياأخى..

وتمتمت سناء زوجته:

ـ فعلا.

فتساءل بحدة:

ـ آخر من يعلم؟

فقالت سناء:

ـ أنه رجل غنى. غرضه شريف، لم تخف سهام عنا شيئا.

قالت زهيرة:

ـ لم أرد أن ازعجك قبل أن أتحقق بنفسى، وافقتنى سناء على رأيى، قالت لى سهام أنه رجاها أن يحدثها، ذهبت إليه بنفسى لأقول له أن الطريق الوحيد أن يحدثك أنت.

ـ ماذا قال؟

ـ قال أن ثمة سوء تفاهم بينكما قد يخيب رجاءه.

ـ أكان فى نيتك أن تزوجيها من وراء ظهرى؟

فقالت سناء:

ـ اتفقنا أن أحدثك ولكنك سبقت!

فنظر إلى سهام متسائلا:

ـ هل أعجبك؟..

فقالت زهيرة:

ـ أنى أبحث عن حل يرضى الجميع.

أدرك أبعاد الموقف. أدرك أيضا دور زوجته التى تحلم بالتخلص من زهيرة وسهام. ضحك بمرارة وقال:

ـ ما هو الإنشال قضى فى السجن عامين!

فوجمن فى ذهول. تذكر هو يوم رآه رابضا فى البستان تحت البيت. قال بأسى:

لقد رويت لكن حكاية سوق ليبيا، وحكاية زعتر النورى، محمد زغلول هو زعتر النورى!

قرأ وجوههن بنظره الثاقب. سهام يغمرها شعور بالنجاة. زهيرة مطبوعة بالخيبة. سناء مغيظة محنقة ولكن قضى عليها بالهزيمة. تمتمت زهيرة:

ـ ما تصورت ذلك قط.

فقال بسخرية:

ـ هو هو لم يتغير الا مظهره، كان لصا غير قانونى فأصبح لصا قانونيا..

- ١٣ -

التقت عيناه بعينيه رغم الضجيج والزحام. رسالة خفية سرت منه إلى الآخر. غادر موقفه أمام الكشك نحوه. بداأنه استشعر الجو كله. قال بتسليم:

ـ قلب المؤمن دليله.

سار محمد فوزى خارجا من نطاق السوق والآخر يتبعه حتي وقفا تحت جدار القلعة الشاهق، وعند ذاك هتف به الضابط:

ـ إنك وغد كالعهد بك..

فتمتم وهو يواجهه بثبات:

ـ الحلم سيد الأخلاق.

ـ كيف تسول لك نفسك التعرض لبنت أختى؟

ـ بالشرف تعرضت لها..

ـ لا تنطق بهذه الكلمة يا زعتر..

ـ محمد زغلول.

ـ كذاب.

ـ هذا كل شئ.

ـ سأعتبر الموضوع منتهيا وحذار..

ـ محمد بك.. ربنا قبل التوبة.

ـ أنت لص لا أكثر ولا أقل.

ـ أنى رجل شريف وغنى ومن حقى أن أفتح بيتا شريفا.

ـ اللعنة على شرفك المزعوم.

ـ لا داعى للغضب.

ـ فلينته كل شئ، أنى أكره الاستمرار فى هذا الحديث..

وتركه دون تحية.

ـ ١٤ ـ

أول ما صنعه أن كلف مخبرا بمراقبة زعتر. وانهمك فى العمل أكثر وأكثر لينسى هموم المطارده. وقال لنفسه: سأبقى

شريفا ولو لم يبق فى الحومة سواى. ولم يترك طويلا للنسيان فقد زاره فى النادى من جديد زغلول رأفت. فى ذلك المساء رجع إلى بيته بالسكاكينى متفكرا ولكن يصاحبه أمل جديد.وبدا وسط قبيلة النساء مرحا. وقال:

ـ عريس له وزنه يطلب يد سهام.

فتطلعت إليه الأبصار وقالت سناء بنغمة أمل واضح:

ـ ما أكثر العرسان!

فقال بهدوء:

ـ هذه المرة زغلول رأفت..

فبادرته سهام:

ـ قلت أنه لص أيضا ياخالى..

ـ لا أنكر، رددت ما سمعته من لص محترف، ولكن لا دليل على ذلك..

ـ لن يغير ذلك من الواقع.

فقالت سناء:

ـ فرق بين النهار والليل، أنه رجل شريف برأى الجميع..

وقال محمد فوزى:

ـ عرفته ثريا ومن رجال البر..

فقالت سناء:

ـ رجل له وزنه حقا، وهو الحلم المطلوب..

فقال محمد:

ـ أنه فى الأربعين، أرمل، ولا أولاد له.

ـ عز الطلب!، لا خير فى الشبان.

ونظر محمد فوزى إلى سهام وسألها:

ـ مارأيك؟

ونظرت إليها أيضا زهيرة كأنما تستوعبها الموافقة ولكنها لاذت بالصمت حتى ضاقت سناء بصمتها فقالت:

ـ من واجبك أن تكونى سعيدة!

فقالت سهام بنبرة متوترة:

ـ صبركم حتى أجد عملا، عند ذاك سأذهب أنا وماما!

فقال محمد مقطبا:

ـ قول غير لائق..

واجتاح الغضب سناء فهتفت:

ـ جئناك بالسعادة حتى موطئ قدميك ولكنك مازلت تحلمين بالمستحيل، أنها فرصة لا تتكرر، وأنا بصراحة لم يعد بى صبر!

وقال لها محمد معاتبا:

ـ سناء!

فصاحت بصوت يهدر بالغضب:

ـ دعنى أنفس عما فى صدرى.

فقالت زهيرة:

ـ أعطونا فرصة، سهام ذكية وتفهم كل شئ، ستسير الأمور كما نود..

أبلغ الضابط زغلول رأفت بموافقة الأسرة. كان التفاهم بين الرجلين كاملا. لم يترك صغيرة ولا كبيرة. اطمأنت سناء تماما إلى أن زوجها لن يغرم مليما واحدا وأن حلمها يتحقق بكل أبعاده. وتصدى محمد فوزى لموجة امتعاض زاحفة فى أعماقه بأن جعل يؤكد لنفسه شرف العريس، ويقول لضميره القلق أن أحدا لم يتهمه فى شرفه الا الوغد زعتر. أجل لقد تصرف مع سهام بطريقة قاسية. فما من شك أن الموافقة انتزعت منها على رغمها. غير أنها ستحظى بالسعادة والجاه. أنه قرار حكيم وستثبت الأيام صدقه واخلاصه. وسارت الأمور فى سبيلها المرسوم حتى خرجت سهام ذات يوم إلى زيادة قريبة ولكنها لم تعد! طال الوقت وغرق الانتظار فى مستنقع الشك القاتل. تحرى عنها فى جميع مظانها ولكن لم يسمع لها عن خبر.. تجسد واقع لم يخطر على بال. تقوض البنيان كله وتلاشت الآمال مخلفة الرعب والأسى. جنت سناء كما جنت زهيرة أما محمد فقد ثار ثورة هائلة. قصد من توه رفعت حمدى ولكنه وجده على حال يرثى لها، وصاح به غاضبا:

– أنك مسئول عما حدث، أنت.. أنت المسئول الأول!

وفى الحال استغل الضابط خبرته فى الخدمة وإمكاناته الغزيرة فى البحث عن المختفية ولكن مرت الأيام تباعا دون نتيجة.

ورن التليفون فى بيته ساعة الغداء عند اجتماع الأسرة فتناول محمد السماعة:

ـ آلو.

ـ أنا سهام ياخالى..

ـ سهام.. أين أنت؟

ـ أكلمك من الاسكندرية.

ـ ماذا تفعلين هناك؟

ـ أنى أعمل.. وبخير.. اطمئنوا.. أريد ماما أن تلحق بى..

ـ أعطنى عنوانك أريد أن اقابلك..

ـ ممكن أحضر بنفسى.

ـ ماذا يؤخرك؟

ـ عدنى أن تلقانى بهدوء واحترام.

ـ لك هذا ياسهام.

ـ سأحضر غدا.

ـ احضرى الليلة أرجوك.

ـ ليكن.. إلى اللقاء.

* * *

أقبلت عليهم فى ثبات كأنما قد نضجت فى أيام غيابها أعواما، تلقتها أمها باكية. تساءلت سناء:

ـ ماذا فعلت بنا يا سهام؟

وقال محمد بهدوء:

آخر ماكان يتوقع منك..

فقالت باسمة:

ـ الدفاع عن النفس حق مشروع.

ـ ليس بهذه الوسيلة.

ـ الأفضل أن تسمعوا حكايتى..

صمتت مليا لتجمع شتات أفكارها ثم راحت..

ـ بلغ منى الياس مداه، صممت على التحدى، لانتقام، قلت أنهم يريدون أن يزوجونى من لص مغطى آخر. سأتزوج من اللص المكشوف. وذهبت إلى محمد زغلول أو زعتر النورى.

صاح محمد فى جنون:

ـ كلا.

ـ هو ما حصل، كنت يائسة عمياء، رأيت فى كشكه امرأة جميلة فلوحت له من بعيد فجاءنى وهو لا يصدق عينيه، فقلت له أريد أن أحدثك حديثا هاما. أخذنى فى سيارته إلى مدينة المقطم. فى مكان شبه خال يطل على القاهرة، كان من العسير جدا أن أبدا ولكن كان لابد أن أبدا، سألته ألا زلت تريدنى؟ أجاب ذاهلا بالأيجاب. فقلت له أنى موافقة. سألنى هلى أفضيت برغبتك إلى محمد بك أو والدتك؟ أجبت بالنفى. سألنى ماذا دفعك إلى المجئ إلى؟ فقلت له أنى لا أريد استجوابا وأنى مستعدة وكفى، وقال أنى رجل لا يهمنى

شئ، لا يهمنى خالك نفسه.. أستطيع أن أفعل ما يحلو لى.. ولكن لابد أن أعرف ما حملك على المجئ.. قلت لا جواب عندى.. واتركنى أذا شئت. قال أنى أعرف أن الوغد زغلول خطبك.. هذه هى المسألة.. ما قولك؟ قلت أنى أرفض الاستجواب. قال يبدو أنك لا توافقين عليه.. ربما لسنه وسوء سمعته.. أن ما جاء بك إلى هو الرغبة فى الانتقام أو الرغبة فى الانتحار، فلم أحر جوابا ولمعت عيناى، قال أنك عنيدة مثل جلجلة.. أنى أحب هذا.. ولكنى لا أعرف العبودية فى الحب. قلت فلنرجع. قال: ارفض أن أجعل من نفسى أداة انتقام فى يدك، قلت أذن فلنرجع، قال هذا يعنى أن اسلمك للوغد زغلول رأفت.. كلا.. لقد وقعت فى شبكة من المنافقين واللصوص ومن الشهامة ابقائك. قلت ولكن كيف، قال خالك يحسبنى شيئا قذرا..كلا.. أنا لم أخن زميلا فى حياتى.. حتى جلجلة فإنى مرتبط بها رغم شبعى منها.. وقد جعلت عصابة من النشالين عصبة من الأعيان.. معجزة تحتاج لثورة كاملة.. وأنى أرفض أن يستعملنى أحد أداة انتقام.. ولكننى سأنقذك.. خالك رجل فقير لأنه شريف.. لذلك يهمه أن يتخلص منك على خير.. لذلك وافق على تسليمك للص قانونى.. اسمعينى جيدا.. أنت متعلمة.. سألحقك بعمل يحفظك من المنافقين واللصوص..

ساد صمت تجلى فيه صوت الأنفاس المترددة.. ثم تساءلت أمها:

ـ أى عمل؟

ـ موظفة فى كشك يملكه فى الاسكندرية بأجر بسيط ونسبة فى الأرباح..

ـ أهو يكفيك يا بنتى؟

ـ فوق الكفاية يا ماما.. لابد أن تأتى معى.. ستجدين حياة معقولة جدا..

وقالت سناء:

ـ أنه رجل مذهل.

استمر الحديث بعد ذلك ولكنه ـ محمد ـ لم يتابعه. غرق فى أفكاره بعمق وحزن وذهول، أى هزيمة منى بها؟ إنه يتلاشى من الوجود ويحسن به أن يتوارى عن الأعين. وغادر الشقة صامتا. ولما اقترب من ضجيج السوق أثارت الأصوات فى صدره شجنا ثقيلا. ولمحه زعتر فهرع إليه متهللا. تصافحا. وقفا يترامقان فى صمت طال حتى ضاق به محمد فتمتم:

ـ شكرا لك يازعتر.

فقال الرجل ضاحكا:

ـ محمد زغلول من فضلك.

فقال محمد فوزى بهدوء ويقين:

ـ زعتر النورى، اسم طيب لرجل طيب!، ماذا يخجلك منه؟!



المسخ والوحش

أعجبتني

حكاية الشاطر حسن فى بلاد الواق الواق.
غادر ذات يوم أسرته كما يغادر الفرخ بيضته وراء حلم غامض فأسعده حظه الميمون بلقاء سيدنا الخضر . وقرأ سيدنا فى وجهة براءة الفطرة ونقاء الحلم فحدثه عن مأساة مسوخ تعساء مسخهم وحش آدمى أحجارا غير كريمة فأشعل فى قلبه رحمة وهمة . ووهبه فرصة فريدة لتحرير المسوخ وارجاعها إلى انسانيتها المهدرة وذلك بقتل الوحش. ودله على المكان الملقاة فيه الأحجار الممسوخة، والوسيلة التى يقتل بها الوحش، فمضى إلى بلاد الواق الواق ورأى بعينه الحزينتين الأحجار الآدمية وتربص بالوحش حتى جاء فى وقته المعلوم فأكل وشرب ونام، فوثب عليه وقتله، وفى الحال تلاشت الصفة الحجرية

واستوت الأحجار بشرا يهلون فرحا ببركة الحياة المستردة . ورحت أتذكر الحكاية وأنا بمجلسى المعهود فى خمارة نجمة الصبح ورأسى مشعشع بالنشوة وكالعادة غبت فى أعطاف حلم وردى، ثم انتبهت على رجل يجلس إلى جانبى يمزج النبيذ بعصير الليمون، ملتف بعباءة أرجوانية، معمم بعمامة خضراء، يبهر الناظر بلحية بيضاء مسترسلة حتى ثغرة صدره. ولم يكن التطفل من شيم أهل خمارتنا ولكن الأنس حل بى فحدس قلبى أنه صديق يشع الخير من ومضات عينيه. قلت مرحبا :

ـ أهلا

فقال بنبرة باسمة :

ـ صحتك

واستسلمت للنشوة إلى مراقيها حتى هتفت :

ـ هذه ليلة ولا كل الليالى .

فسألنى بعذوبة :

ـ كيف اهتديت إلى هذه الخمارة التى بالكاد لا يعرفها الاروادها ؟

فقلت جذلا:

- بحسن الحظ وحده، ومن يومها لم يعد يؤرقنى شىء .. فتساءل بصوت يمتزج فيه الحنان بالسخرية كما يمتزج فى قدحه النبيذ بالليمون : .

- ولا المسوخ ؟!

دقت كلمة المسوخ ناقوس اليقظة فى قلبى فتساءلت :

- أى مسوخ تعنى ؟

- هم مسوخ ذوو مسوخ من ضحاياهم، ولا نجاة لهؤلاء أو أولئك الا بقتل الوحش!

فتهدج صوتى وأنا أقول :

- لعمرى انك لسيدنا الخضر دون غيره!

- لا أهمية لذلك، المهم من يكون الشاطر حسن؟

وهم بالقيام فأمكست براحته وسألته بشغف:

- متى أراك ثانية؟

فقال واقفا معلنا عن قامته الطويلة النحيلة :

- لا أهمية لذلك .

وذهب مشيعا بمودتى الخالصة وبقوة آسرة، ودون مقدمات، آمنت بانني صاحب رسالة وأنه آن لى أن أودع أحلام اليقظة . ولكن من يكون المسوخ؟. ومن يكون مسوخ المسوخ؟ . ومن يكون الوحش؟ . وكيف فاتنى أن أستجوبه؟ ولم يغب عنى السر، فالحقيقة أن محضره يشتت الارادة . وجدتنى فى محضره طوع خواطره، مسلوب المنطق. لا أزيد عما يريد حرفا. هذه هى الحقيقة . ولذلك لم يداخلنى شك فى أنه ولى من الأولياء . وأدركت بعد فوات الوقت أننى لم أنتبه لقيمة الوقت، وأننى عبرت معه لحظة من اللحظات التى تسترجع فيما بعد بشق الأنفس فيعتدها الخيال احدى الفرص التى لا تتكرر ولا يجدى معها الندم. واستدعيت باشارة النادل عم زياد البرلسى ثم سألته :

- هل تعرف الشيخ الذى كان يجلس إلى جانبى؟

فقطب متذكرا وقال :

- شغلنى العمل عن ذلك .

- ولكنك قمت بخدمته وقدمت اليه طلبه؟

- لعله كان يجلس فى مكان ما ثم انتقل اليك بقدحه. وكان من الممكن أن أعتبر المسألة حالا من أحوال السكر



تذهب بذهابه، ولكن لا جدوى من مخادعة النفس فالأمر أخطرمما يتصور. نفذ السهم إلى مركز اليقين. وما كان فى وسعى أن أتحلل من مهمة ألقتها الأقدار على عاتقى فأرضى هانئا بالعودة إلى آفة اللاشىء . وألقيت نظرة على من حولى من السكارى فاذا بهم يسبحون فوق تيار من الهموم المتضاربة ويناقشونها بندا بغير ملل. الأسعار التهريب الاستيلاء على أرض الدولة الثروات غير المشروعة، سوء المعاملة، الطوابير الديون، النفوذ الأجنبى، قذارة، المجارى، المذابح، وغيره مما لا يحيط به حصر، ولكن لا أحد يتحدث عن مسوخ أو مسوخ المسوخ أو الوحش. ومتشجعا بحنان الليالى المتتابعة سألت : ـ هل رأى أحد منكم النسيج ذا العباءة الأرجوانية؟

فانطرحت لحظة صمت ثم اندفعت أصوات ضاحكة تغنى : يابو العباية

لم يبل أحد ريقى وغرقوا فى الضحك والهناء. فعدت أسأل :

ـ من المسوخ؟، هل جرى لكم علم بذلك؟

فماجـوا بحركات الضـحك الراقـصـة غير أننى سـألت باصـرار:

- ومن يكون الوحش؟

فصـاح أحدهـم :

- أخوكم وصل، فلتحفظنا بركة دعاء الوالدين؟

أقلعت عن السؤال . وغـادرت الخمـارة وأنـا أعد نفسـى من مـواليد تلك الليلة العجيبة. وكلمـا أقبلت على الخمـارة أقـبلت علـى أمل فـى أن أرى الشـيخ من جـديـد ولكن دون جدوى. وطيلة نهارى أتساءل عمن يكون الممسوخ وعمن يكون الوحش. وكلما مررت بحيوان أو شجرة إو حجر استحوذ على خيالى ولحت فى صميم جوهره مسخا من بنى آدم يئن ويتعذب . وساءتنى التفرقة فى المعاملة بينى وبين الشاطر حسن، فبقدر ما أعانه الخضر على أداء مهمته بقدر ما أعرض عنى، تاركا اياى للكدح والعذاب. وانتهت بى الحيرة إلى اتخاذ قرار جرىء، وهو أن أسأل أهل الرأى والخبرة، مستشهدا بقول القائل « لا خاب من استرشد » . واتجه ذهنى أول ما اتجه نحو السيد « م » وهو من البارزين فى

الحزب الوطنى الديمقراطى. توسلت إلى مقابلته بصديق، ثم عرضت عليه حيرتى، وسألته :

- من هم المسوخ، ومن هم مسوخ المسوخ، ومن هو الوحش؟

ولم يأخذ من التفكير الا أقصر ثم قال بثقة:

- عندنا نوعان منهم، مسوخ من العملاء الملاحدة، ومسوخ المسوخ هم المخدوعون من أتباعهم، والوحش فى هذه الحال هو الشيوعية أو أن شئت الاتحاد السوفييتى . ومسوخ من التيار الدينى المنحرف، ومسوخ المسوخ هم أتباعهم من المخدوعين. والوحش فى هذه الحال بعض الدول مثل ايران وليبيا .

وتركته شاكرا وبى غصه من خيبة الأمل اذ مهما تكن ثقتى فى نفسى ورسالتى فمن أين لى بالقوة التى أقتل بها الاتحاد السوفيتي وايران وليبيا؟. ولكن همتى لم تفتر فاتجه تفكيرى فى الحال نحو الأستاذ « أ » المعترف بحكمته فى حزب التجمع، واستقبلنى سيادته بلا أدنى صعوبة، فعرضت عليه حيرتى ثم سألته :

ـ من هم فى رأيك المسوخ ومسوخ المسوخ ومن هو الوحش؟

فاعتدل فى جلسته وابتسم ابتسامة العالم بكل شىء وقال :

ـ يستوى عندى أن تكون سائلا بريئا أو أن تكون قادما من طرف السيد وزير الداخلية، ولكن ذلك لن يمنعنى من اجابتك طالما أننا نعمل فى وضح النهار، فاعلم أن المسوخ هم عملاء الغرب، ولا يوجد مسوخ المسوخ لأنه لا أتباع لهم، وما الملتفون حولهم الا مجموعة من الانتهازيين تجدهم بأشخاصهم فى رحاب كل حكومة، أما الوحش فهو الامبريالية العالمية أو ،ان شئت الولايات المتحدة الأمريكية ..

فأكدت لسيادته أن حيرتى نابعة من ذاتى ولا علاقة لها بالسيد الوزير الداخلية، وشكرت له بيانه، ثم غادرته موقفا بأن الصعود إلى القمر بلا تكنولوجيا أيسر على من قتل ذلك الوحش الجديد، ومع ذلك صممت على السير فى طريقى حتى نهايته. تذكرت صديقا قديما انخرط منذ أعوام فى تيار دينى متطرف فقصدته دون تردد. استقبلنى مداريا فتوره اكراما للعهد القديم ولكنه امتنع فى الوقت نفسه عن مصافحتى متمتما :

ـ معذرة، لا أصافح كافرا!

وكنت موطنا نفسى على تحمل أى سلوك يجيئنى منه فقبلت عذره، وعرضت عليه حيرتى ثم سألته :

ـ من هم المسوخ؟ ومن مسوخ المسوخ؟،، ومن يكون الوحش؟!

فقال من فوره:

ـ المسوخ هم حكام البلاد الاسلامية ورجال الدين بها، ومسوخ المسوخ هم جمهرة المسلمين، وأما الوحش فهو نظام الحكم فى كل مكان ..

وغادرت موضعه مغموسا فى المرارة. خيل إلى أن القضاء على الاتحاد السوفييتى والولا يات المتحدة معا أيسر من القضاء على الوحش الجديد، ولكنى لم أنثن عن مسيرتى . وتذكرت الأستاذ « ن » الذى يمثل فكر الوفد كخير ما يكون التمثيل. واستقبلنى سيادته بحرارة لا توهب عادة الا للأصدقاء . وعرضت عليه حيرتى ثم سألته :

ـ من هم المسرخ، ومن هم مسوخ المسوخ، ومن هو الوحش ؟

فقال باسما فى ثقة تامة :

ـ المسوخ هم جميع السياسيين غير الوفديين، ولا أتباع لهم فى الحقيقة فالبدر وفدى مئة فى المئة، أما الوحش فهو النظام الدكتاتورى الذى لم يوفق بعد إلى قناع يخفى به وجهه ..

وتركته شاكرا وأنا أقول لنفسى حقا أن هذا الوحش يبدو أقرب إلى اليد من الوحوش الأخر ولكن بالقياس إلى قوتى الذاتية يمكن القول بأن « سى أحمد أخو الحاج أحمد » . ولم يبق فى جدولى الاالمثقفون فاخترت الأستاذ «أ» لمنزلته المعترف بها من الجميع. واستقبلنى بحياد فعرضت عليه حيرتى ثم سألته:

ـ من هم ياأستاذ المسوخ، ومن هم مسوخ المسوخ، ومن هو الوحش؟

فأجابنى بجفاء:

ـ المسوخ هم الجهلة وتجدهم فى كل موقع لا بقاء لهم الا بالقوة، ومسوخ المسوخ أتباعهم وهم أجهل منهم ولكنهم أكبر دهاء وانتهازية، أما الوحش فهو الجهل ..

وتركته وأنا أتساءل وكيف يمكنني قتل الجهل؟. أجل انى أعتبر الأستاذ « و » خير من يجسد الجهل ولكن هل يزول الجهل بقتله؟ . ووجدتني أغوص أكثر وأكثر في دوامة لا فكاك منها، حتى ورد على خيالي مولاي العارف بالله الشيخ « ص » فقصدته من فورى، واستقبلني - كالعادة - باسما مرحبا، ولكنه بادرني قائلا:

- أعرف ما ساقك إلى اليوم!

فلم أدهش لسابق علمي بقدرته على النفاذ إلى أعماق القلوب . وقال متعنى الله بعمره ونور انيته .

- ما المسوخ الا عشاق هذه الدنيا الفانية، ومسوخ المسوخ هم المبهورون بما يملك سادتهم من زخارف زائلة، أما الوحش فهو النفس الضالة ..

وعدت إلى بيتي وأنا أقول لنفسي حقا أن هذا الوحش لا يستهان بأمره، ولكن قتله ممكن، ولن يعرضني لقبضة القانون. وأعلنت الحرب، وأقسمت على الصمود والتصدى مهما طال بى الزمن. ولم أهجر بطبيعة الحال خمارة نجمة الصبح التي عرفت اسهتاذى العارف بالله في ركن من

أركانها . وفى ذات ليلة وأنا ثمل بنشوتى فى مجلسى المختار انتبهت على وجود صاحب العباءة الأرجوانية إلى جانبى وهو يمزج النبيذ بالليمون. وهتفت :

- يا للسعادة، لقد جئت أخيرا ..

ولكنه لم يعرنى أدنى اهتمام فقلت :

- لقد عملت بمشورتك، وها أنا أقاتل الوحش حتى أقتله..

وأصر على تجاهلى تماما ولم يلق على نظرة واحدة ولم تهب على من ناحيته نسمة أنس أو مودة .

وأفرغ قدحه فى فيه ثم نهض متجهما وذهب .

تركنى لحيرة لم تخطر لى فى بال .



الحب فوق هضبة الهرم

- ١٠ -

أريد امرأة أية امرأة.

انها صرخة مدوية، انبعثت أول ما انبعثت من جوانحى على هيئة همسات من الذهول. همسات من الأنين. همسات من الغضب. ثم انفجرت صرخة مدوية. ما هى بالأنانية. ما هى بالبهيمية. ما هى باللامبالاة.انى أزعم بأنى مواطن بدرجة مقبولة، بل انى أيضا انسان بدرجة لا بأس بها. رأسى شهد حوارا طويلا عن الفقر والتخلف والسلام والديمقراطية والتموين والمواصلات والطرق. به موضع أيضا لهموم الأسرة الكبيرة كالصراع بين الشرق والغرب. تلوث البيئة، نضوب المواد الأولية، العلاقة بين العالم المتطور والعالم الثالث، احتمالات

الحرب النووية، اذن فالوعى آخى بينى وبين المواطن والانسان. غير أننى لم اعد أفكر بشئ من ذلك. ، أن تفكيرى به فتر وتقهقر وذاب في اللامبالاة. أنجم ذلك عن خمود في العاطفة أو الفكر أو التعلق بالحياة؟. كلا وأقسم على ذلك. لالمسألة أننى ما أن ختمت حياتى المدرسية حتى التحقت بالوظيفة ومن ثم خبرت الفراغ والبطالة. عند ذاك تضخمت همومى الشخصية، استأثرت بوعيي كله، ركبتنى، اجتاحتنى، استعبدتنى، اصابتنى بالهوس. باتت أى مشكلة سواها ترفا، لهوا، سخفا. الجنس أصبح محور حياتى وهدفها. انقلب وحشا ذا مخالب وأنياب. قوة مطاردة مهددة. يطالب بالممكن ويطمح الى المستحيل. خلق منى كائنا جنسيا خالصا. ذا حواس جنسية، وأخيلة جنسية، آمال جنسية، وأحلام جنسية. على ذلك فأننى أبعد ما يكون عن الاستهتار أو المجنون. رافض للاباحية وفلسفاتها. أروم الحياة الشرعية المستقرة، ألتمس اليها الوسيلة بلا شروط متهورة أو طموح كاذب أو طمع قبيح. أنشد حقا حيويا أوليا لا أدرى كيف أهتدى اليه.

ولكن من أنا؟

على عبد الستار، فى السادسة والعشرين من عمرى، ليسانس حقوق، موظف بالشركة ا.د. س. ولدت مع الثورة، ناهزت الحلم عام ١٩٦٧ المشئوم. نلت ليسانس الحقوق عام ١٩٧٤، الحقت بالشركة عام ١٩٧٥. كنت من حملة الثانوية علمى. وكان أملى أن أتخصص فى الصيدلة أو الكيمياء. خاننى المجموع، حملنى تيار التنسيق الى كلية الحقوق بشهادتى العلمية. ما خطر لى أبدا أن أدرس القانون، ولكننى نجحت بقوة الارادة، اكراما لعناء أسرتى المكافحة، خوفا من التشرد والجوع. ولما األحقت بشركة ا.د.س. عينت بادارة العلاقات العامة. غنى عن البيان أننى كنت زائدا عن الحاجة. خيل الى أن الزائدين أكثر من العاملين. وقال لى وكيل الادارة:

- لحجز كرسيا.

ثم قال بنبرة ساخرة:

- قد يتعذر ذلك غدا.

- منظرك مقبول، تصلح للعلاقات العامة، ولكنك ستبقى بلا عمل حتى يقضى الله أمرا كان مفعولا.

فقلت بهدوء:

- عندى فكرة عن كل شئ.

- عظيم. ستبقى أيضا بلا مكتب حتى نراجع المخازن، اصبحنا فى حاجة الى حجرة اضافية، لماذا لا يسمح من للموظفين الجدد بالبقاء فى بيوتهم مع الاحتفاظ لهم بحقوقهم فى العلاوات الترقيات؟

فقلت بغيظ مكتوم:

- اقتراح وجيه جداً !

- ولكن لابد من التوقيع فى دفتر الحضور والانصراف.

هكذا التحقت بالخدمة هكذا استقبلت عهدا من الفراغ المطلق لاخبرة لى به من قبل، فيما مضى استأثرت الدراسة بحيويتى. ولم تخل العطلات من الاطلاع وأنشطة الشباب. الى ذاك فقد انتفعت بنشأة أسرية دافئة تعبق بعطر الدين والقيم. ولما انبثق الجنس استطعت أن أروضه بالخلق والعمل الأمل. أما فى عصر الفراغ فقد انفرد بى، كما انفرد بى الزمن فى جريانه، وتساءلت متى.. وكيف جلست على الكرسى كمن ينتظر دوره فى تحقيق. أراقب أقرانى

العاطلين، وآخرين يذهبون بالأوراق ويجئين، وامرأتين كهلتين متزوجتين، بين نوافذ مغلقة لتصد تيار الخريف البارد، فى جو فاسد بأنفاس البشر والسجائر، ومن زجاج النوافذ أتطلع الى شرفات العمارة المقابلة مترقبا ظهور أنثى. وطيلة الوقت اتخيل مناظر جنسية ومواقف، وأخوض مغامرات غاية البراعة والعذاب. وسمعت حوارا بين الوكيل زميل له من معارفة:

- كيف وجدت الفراغ؟

- لا يطاق.

- على أيامنا كانت الوظيفة حلما عزيز المنال فاذكروا نعمة الله عليكم.

- وما قيمة النقود؟

- هى خير من الشارع!

تبادلت مع الزميل، عقب ذهاب الوكيل، نظرة شاحبة مثل جو الحجرة وقلت له:

- هنيئا لنا فنحن محسودون..

وتعلمت أن أتسلل الى شارع قصر النيل مع الضحى. تعلمت الصعلكة. انها مفيدة ومنشطة في لجو الآخذ فى البرودة. وهي مضحكة أيضا وهى تخوض فى بحر متلاطم الأمواج من البشر والسيارات والأصوات المزعجة. طابعه - الشارع - الضيق والعصبية والكبت. كل شئ يريد أن ينطلق ويعجز عن الانطلاق يستوى فى ذلك الانسان والسيارة. الكبت والقهر والتذمر. الطريق يعانى من أزمة جنسية مثل أزمتى. انه يفتقد الشرعية والحرية والاشباع. ومع ذلك فهو مغطى بالتراب كأنه يتهدى فى مدينة خيالية. ولكنى لم أعن الا برصد بالتراب كأنه يتهدى فى مدينة خيالية. ولكنى لم أعن الا برصد النساء. هن همى وشغلى وحياتى ومماتى. وجعلت أبل ريقى الجاف بمضغ اللبان.وتنتقل نظراتى المحمومة من السيقان إلى الصدر إلى الأعين. وكدت أفقد حياتى ذات مرة. كنت أهم بعبور الطريق حين اقتحمنى صدر ناهد فسحرنى واستولى علىّ. قذف بى فى أعماق الهو. اندفعت إلى العبور دون أن ألتفت يمنة كما ينبغى لى. واذا بسيارة تنقضى على كالقذيفة. نظرت نحوها فأيقنت بالنهاية. ولا وقت للرجوع ولا للتقديم. استسلمت استسلاما نهائيا وتقوس ظهرى لتلقى الضربة القاضية. تجلت لى حقيقة الموت

لا كفكرة مجردة مسلم بها ولكن كشعور يملأ الوجدان بثقله وقوته واقناعه. صرخ بى أن هكذا أجئ عندما يتقرر ذلك وهكذا تنتهى الحياة فى غمضة عين. خيل الى أنى رأيت وجهه مجسدا فى اللحظة الخاطفة التى لا يكشف عن وجهه الا فيها. وحيال نظرته الواثقة مر بسرعة البرق شريط حياتى من المهد الى اللحد. لا وجهه أدرى كيف أصفه ولا حياتى أدرى كيف رأيتها مجتمعة فى أقل من ثانية. وبلغ الخوف الدرجة التى يفقد فيها الشعور بذاته. لكنه اختفى بمعجزة. انحرف السائق بالسيارة ببديهة مذهلة فصعد الطوار مهدداً حيوات وأوشك ان يصطدم بالجدران. ماذا حدث لى وماذا حدث للآخرين؟. سبحت فى ذهول أعفانى من متاعب جسيمة. مرت دقيقة على الأقل قبل أن أدرك أن الطريق كله يهبنى بنظرات السخط والغضب. ثمة صياح وتعليقات شتى.. السائق لصق السيارة ويقذف بالسباب كالمطر. مضيت مترنحا أفر بنفسى فرارا. كنت اعانى آلام الخروج الى الحياة من جديد. وأعانى من مرورى الخاطف فوق ثلاثة معابر متناقضة هى شهوة الجنس ومقابلة الموت ومفأجاة للا نجاة. وأحدثت برودة النجدة الملقاة على نيران الفزع أثرا عنيفا تعانق فيه السرور المتألق والحزن العميق. مضيت

أسير حتى وقفت لأسترد أنفاسى بعيدا عن موقع الحادثة. حتى فى ذلك المكان لم أفلت من عينى عامل من عمال الطرق فقال لى بسخط واضح:

- مسطول؟.. بسبب امثالك يتعرض السواقون المساكين الى متاعب المحققين، لا تنس إنك مدين بحياتك للسائق..

فضاعف ضيقى وقلت كالمعتذر اتقاء لسخطه:

- انها الهموم.

فصاح محتجا:

- الهموم!.. ماذا تعرفون عن الهموم؟!

ذهبت مبتعدا وقد نسيت أزمتى الجنسية وقتا غير قصير. ولكنه غى طويل أيضا. حذرت نفسى من سحر المناظر. وقلت لنفسى انها التعاسة حقا أن يفقد الانسان حياته لسبب كهذا. أنها محنة. ولكن ما لعمل؟. لا يغيب عنى مايقال عن الزواج وتكاليفه. المهر والشقة وخلو الرجل. يلزمنى قرن من الزمان لأقتصد نفقات زيجة عادية. انه طريق مسدود تماما. أجل ان الأيام تمضى والصبر يفقد ولذلك هان علي - رغم تقاليد تربيتى الراسخة - ان أفكر فى

«الحرام» كضرورة لا مفر منها دفاعا عن صحتى الجسدية والنفسية. شاورت فى ذلك صديقا قديما من أهل الخبرة فقال لى:

ـ الفرص أكثر من أن تحصى.

ولما أنسى منى اقبالا شديدا سألنى:

ـ هل عندك فكرة عن الأسعار؟

ومضى يستعرض الفرص والأماكن والمراتب ويذكر الأسعار حتى قلت فى ذهول:

ـ غير معقول!

فقال باسما"

ـ الحرب والتضخم والانفتاح!.. هل أدلك على أرخص سبيل؟

فسألته عنه بلهفة فقال:

ـ لعله الزواج!

وقلت لنفسى انه الحزن ولا شئ الا الجنون..

أسرتى أيضا مصدرهم لى لا ينقضى فى متاعبها الظاهرة ما يكفى فيمنعنا الحياء من نبش متاعبها الخفية. أبى يقترب من سن المعاش فنحن فى سباق مع الزمن. أمى كيميائية، لأنها درست الكيمياء فحظها من التعليم وقف بها عند الابتدائية، ولكن للأعاجيب التى تصنعها لتوفر لنا الطعام اليومى. وهى تقلب الملابس وتصبغها وترفوها وتجددها وتجعل بعضها ملكية مشاعة البعض الآخر ملكية متوارثة وتصنع من البطاطين القديمة أروابا للأيام الباردة. المساعدة التى جاءت نتيجة لالتحاقى بالعمل التهمها الغلاء المتصاعد. وانى انظر الى شقيقتى مها (الآداب) ونهى (الثانوية العامة) برثاء، ويحزننى منظرهما البسيط المتقشف. انهما محرومتان من أشياء تعتبر فى سنهما ضرورية لا كمالية، وممنوعتان أيضا من الشكوى، التى تضيق بها أمى فيرتفع صوتها الحاد :

- حالنا أفضل من غيرنا الف مرة.

على ذلك فايجار شقتنا قديم دون الأربعة جنيهات بقروش، ومهما قيل فى شارع شمردل بروض الفرج فهو

مسقط رءوسنا جميعا. لذلك لايكاد أبى ينعم ضحكة صافية. دأب على تذكيرنا بمصيره فيقول:

- لم يبق الا عامان ثم المعاش!

وينظر الى شقيقتى ويقول:

- النجاح.. النجاح..

لقد نحل لرجل كأنما يجف رويدا روايدا، وزاد من ضآلته قصر قامته، ولم يكد يبقى أثر من وسامته الأصلية. الوسامة خاصية لأسرتنا مثل الفقر. وهو لا يدخن، كما انقطع عن المقهى منذ أعوام. وكما يقال، فهو من البيت الى وزارة المواصلات ومن وزارة المواصلات الى البيت. وتسليته الوحيدة يجدها فى تبادل الزيارة مع جار قديم - مدرس قديم - مدرس لغة عربية على المعاش - يسامره ويستفتيه أحيانا فى بعض الشئون الدينية. وكان يقول:

- منذ اعوام كان رجل مثلى ذو مرتب يجاوز الستين جنيها شهريا يعد من الموظفين المنعمين ولكن الدنيا جنت..

وكان مما يحز فى نفسه أنه ضيع فرصة زواج لا بأس بها على مها. يومها قال بأسى:

- ما باليد حيلة. لكن المهم هو العلم والعمل، بعد ذلك تتحسن الظروف والأحوال، نحن لا نملك بالكأد الا قوت يومنا.

فقلت له:

ـ الاسعار ترتفع ونحن ننخفض.

فقال باسما ابتسامة لا معنى لها:

- كنا طبقة وسطى فأصبحنا من الطبقة الدنيا..

فقلت بحدة:

- نحن الفقراء الجدد فى مقابل الأغنياء الجدد.

فحدجنى بنظرة تصدنى عن الاسترسال وقال:

- لا تستسلم لسخط فهذا مما يزيد الحياة تعاسة، وحذار أن تردد ذلك أمام مها ونهى!

فقلت مصرا:

- الزواج حق مشروع، ترى كيف يفكران ياأبى؟ فتجهم وجهه وقال:

ـ لقد أحسنت تربيتها، أمك صاحبة فضل أيضا. نحن أسرة شريفة والحمد لله، وغدا يتوظفان ويبتسم الحظ!

ـ لقد شهدت برنامجا فى تلفزيون المقهى يقطع بأن المتسولين خير حالا منا..

ـ ولكنهم يتسولون ونحن نخدم الدولة!

لم تستطع الأحوال أن تقتلع بقية العزة من نفسه، كما أن أمى تعبر أحيانا عناد الحاضر متطلعة الى آمال غامضة وراء الأفق.

وقلت مواصلا حديثى:

ـ انى اتابع أنباء الأفراح فى الفنادق بذهول.

فتساءل بحدة:

ـ وأى فائدة تجنيها من وراء ذلك؟، يوجد أغنياء منحرفون كما يوجد شرفاء، ولا شئ يدوم فى هذه الدنيا.

ثم بنبرة أرق:

ـ أتدرى ما هو حلمى؟

ثم أجاب قبل أن أنبس:

- أن تعلموا ذات يوم فى الخارج، انه حلم وما هو بالحلم..

- ٤ -

الهجرة!. انهم يدعون أهل المهن والحرف وأنا لا من هؤلاء ولا من أولئك. وما فرصة الحقوقى؟. انها نادرة جدا. فضلا عن ذلك فانى أمقت القانون، وها أنا أنساه فى بطالتى الرسمية دون أسف. وكنت أتسكع فى وسط البلد لا أدرى أين بلغت فى تسكع عندما لمحت - فى مقهى الحرية - الصحفى القديم عاطف هلال. كان منفردا بنفسه للراحة أو التفكير فمضيت نحوه بقرار مرتجل وبجرأة لا تعوزنى. وقفت أمامه حتى أنتبه الى فراخ ينظر نحوى بعينين مستطلعتين وقد تجلى الكبر فى صفحة وجهه أكثر مما يبدو فى الصور التى تنشرها الصحف له. قلت:

- معذرة عن تطفلى، أنا أحد قرائك..

فتمتم بصوت محايد:

- أهلا.

- تسمح لى بدقيقتين من وقتك الغالى؟

ـ تفضل.

جلست ثم قلت:

ـ حرصا على وقتك سأدخل فى الموضوع رأسا، المسألة أنى واقع فى أزمة شديدة..

غامت نظراته بغشاء خفيف من الفتور فخشيت أن الذى تبادر الى ذهنه أنها أزمة مالية وأننى سأطالبه بمعونة فقلت بصراحة:

ـ انها أزمة جنسية!

توارت الغشاوة وراء يقظة طارئة وتساءل:

ـ جنسية؟!

ـ جنسية بكل معنى الكلمة.

فما تمالك أن ابتسم قائلا:

ـ لعلك أخطأت الرجل المناسب!

فقلت جادا:

ـ الرجل المناسب لم يعد لأمثالى لذلك قصدت الرجل المفكر!

فثبت نظارته ليدارى انفعاله وقال:

- يبدو لى أنك فريسة تجربة عاطفية مريرة..

- انى أتسول تجربة فلا أجدها.

- شئ جديد تماما.

- المسألة بكل بساطة أن الزواج مستحيل وسيادتك سيد العارفين، والانحراف أصبح خيالى التكاليف بفضل اخواننا العرب.

فتجلى الاهتمام فى عينيه فتساءلت:

- على تصدق أننى بلغت السادسة والعشرين من عمرى ولما أمارس الجنس ولو مرة احدة؟!

- أصدقك لو أن شكلك مقبول جدا.

- ولكنى مرفوض موضوعا.

قبض على ذقنه فى حيرة وصمت فسألته:

- ما الحل يا أستاذ؟

فتمتم جادا:

- انها مأساة ولست ضحيتها الوحيد..

ـ وما العمل؟

ـ ياله من سؤال!..

ثم مواصلا حديثه:

ـ لا يوجد جواب جاهز، يمكن أن تنتقد تقاليد الزواج السخيفة وندعو الى الهجوم عليها، يمكن أن نتحدث عن واجب وزارة الاسكان، يمكن أن يتحدث عن مشكلة الاناث..

ـ وهل أنتظر أنا حتى يتم هذا الاصلاح؟

ـ ماذا أقول؟، كم من أجيال أجهضت فى تاريخ البشرية!.. وكما أن ملايين من الشباب سعدوا بمعاصرتهم لاكتشاف العالم الجديد فقد هلكت ملايين أخ فى خضم الحروب الطاحنة!

ـ يعنى أنه ليس أمامى الا تجرع التعاسة فى صبر طويل؟

ـ قد يتغير الحظ بارادة الانسان. انك مطالب بالتفكير والعمل، انك اوقع فى شبكة من الظروف المعقدة، وعليك أن تسأل نفسك «ما أفضل سبيل للتصرف فى مثل هذه الظروف؟» وعليك أن تجيب بنفسك..

فسألته بحنق خفى:

- ألا يوجد رأى عند جيل الاساتذة؟

فابتسم قائلا:

- دعك من هذا. انكم لا تؤمنون بأى جيل سابق. الم تجد لو مثلا واحدا صالحا لأن تقتدى به؟

- تعنى...

فقاطعته مواصلا حديثى:

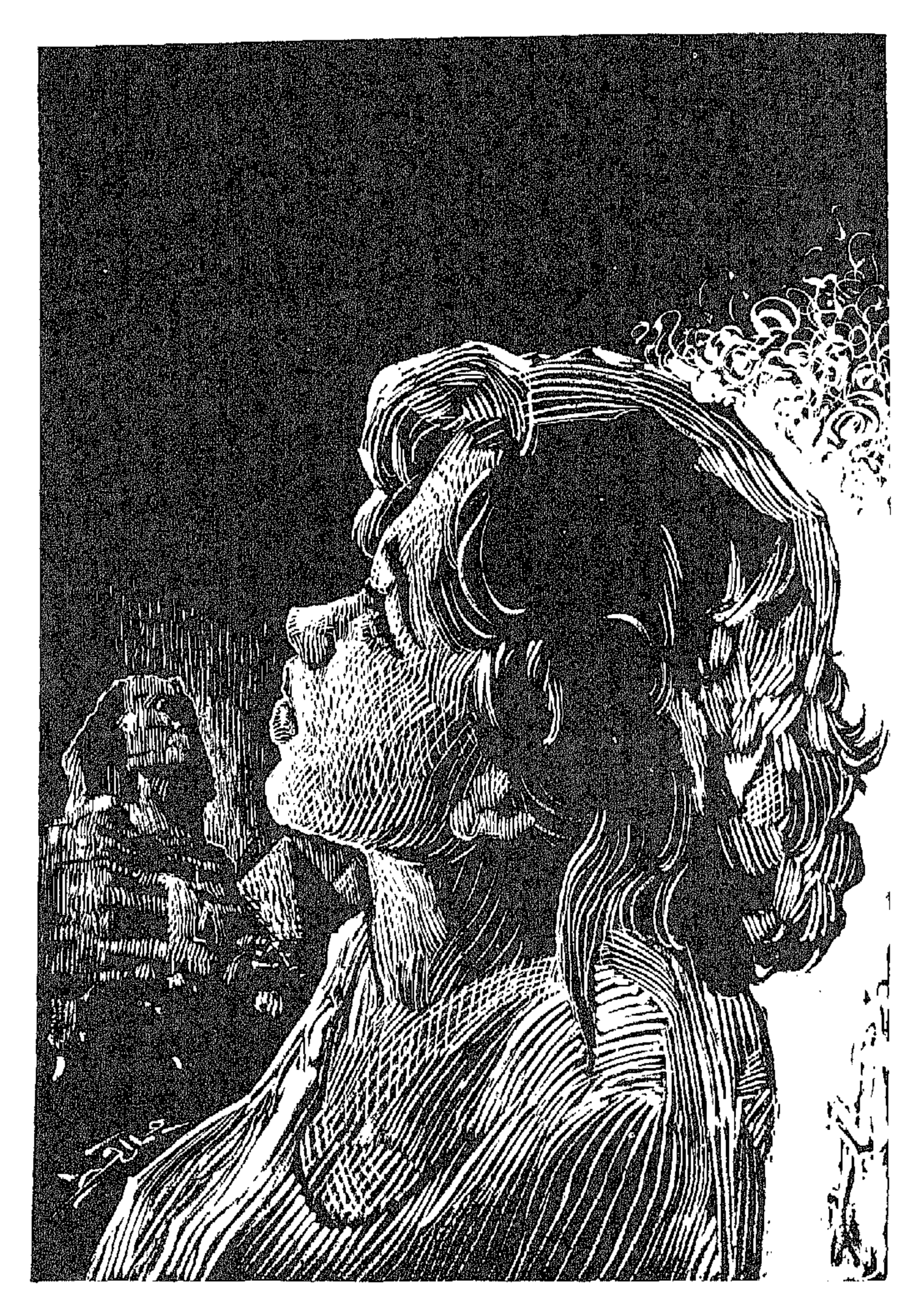
- أعرف أسرة حلت مشكلها بالدعارة!

- ويقتنون الشقق والسيارات ولكنه حل مرفوض كما قلت.

- عرفت زميلا احترف السطو على الشقق فى اثناء الصيف..

- وهو مرفوض أيضا وعاقبته معروفة.

- سمعت عن آخر اغتصب امرأة ثم قتلها اخفاء لجريمته..



السهم

ـ لعلك تقصد الشاب الذى طالب شيخ الأزهر بشنقه علانية؟

ـ لا أدرى، ولكن أما كان الأجدر بالشيخ الأكبر أن يقترح حلا اسلاميا للعاجزين عن الزواج؟!

ـ التشدد فى العقوبة أسهل من ايجاد الحلول..

ـ فما الحل اذن؟

ـ ألم تفكر فى الهجرة؟

ـ لست من أصحاب المهن المطلوبة لا من أهل الحرف.

صمت الأستاذ قليلا ثم قال:

ـ ثمة رأى أفضله اذ أننى مازلت أحتقر الحلول الفردية..

فى فترة قديمة دأب على ترديد هذا الرأى، وكان وقتها يكتب بقلم يسارى صريح، وها هو يعود اليه فيما يشبه الهمس والاستحياء. وقلت له بهدوء لأخفى انفعالى:

ـ جئتك عارضاً أزمة ملحة تتطلب حلا عاجلا وها أنت تنصحنى بالانخراط فى عمل سياسى من أجل تغيير المجتمع، وعلى ذلك فعلى أن أنتظر حلا لمشكلتى يجئ مع القرن القادم..

وغادرت مقهى الحرية بلا ذرة من عزاء. ولكن هل كنت قصدت عاطف هلال بدافع من ثقة؟!. لقد انتزعت الثقة ثم ماتت ثم تفنت. انهم كذابون.. كذابون.. كذابون. ويعلمون انهم كذابون. ويعلمون أننا نعلم أنهم كذابون.. ومع ذلك فهم يكذبون بأعلى صوت، ويتصدرن القافلة..

ما هذه البهجة المنعشة؟

نظرت حلمت وثملت. اشتعلت النيران وأرهفت الحواس. لبثت فوق مقعدى مؤجلا الانطلاق الى رحلة التسكع اليومية.

- ضيفة؟

- موظفة جديدة، ليسانس آداب، اسمها رجاء محمد.

سمرتها صافية، ما أندر السمرة الصافية، لا بالنحيلة ولا بالسمينة، فى العينين العسليتين جاذبية محسوسة، عند الابتسام ترتسم غمازتان فى وجنتيها. بينى وبين أن أرفعها بين يدى وأمضى مشكلات تعبى العديد من وزارات الدولة. انفعلت بها كما أنفعل بأى أنثى يستوى فى ذلك المراهقات والكهلات، البلديات والمتفرنجات، المحتشمات والمبذلات، انغمس خيالى فى مصادر الاثارة. حتى تذكرى شقيقتى لم

يهذب من طغيان الرغبة. غبت عن الادارة ساعة احدة فصاحبتنى نشوتها الزكية فى الذهاب والاياب. وفى آخر النهار تم تعارفنا فى رزانة رسمية. ورجعت الى مسكنى بروض الفرج وأنا أقرب ما يكون الى التعاسة والألم وهما ما يترسبان عادة فى صدرى عقب الرؤية المؤثرة. فى ذلك اليوم اختلست أكثر من نظرة من مها ونهى. جميلتان بلا ريب ولكنه جمال ملقى فى سلة مهملات. بدتا لى متقشفتين صابرتين. تموت الشكوى وراء شفتيهما الممتلئتين. وسألت مها:

- هل تعرفين فتاة من كليتك اسمها رجاء محمد؟

فتساءلت ساخرة:

- كيف أعرف ونحن إكثر من الجيش عدا؟!

- التحقت بادارتنا اليوم.

فتساءلت نهى بمكر:

- لم تسأل؟

- فقلت بتحد ساخر:

- كيف لا وقد تفر لدى المهر وخلو لرجل؟

فقالت مها: - ادع الله أن يكون أبوها من شارع الشواربى فلا يطالبك بمليم!

فقلت ضاحكا:

- الشواربيات للشواربيين!

قرأت فى دعابتها أحلاما خفية، ونحن عادة نتحادث بحذر متأثرين بجو بيتنا المتشدد. أبى وأمى أشد منه. وأمى متفائلة جدا رغم عنائها الدائم. وهى سعيدة بأنها حصنتنا ضد استهتار الزمن. وفى تقديرى أنه سيسعى اليهما ذات يوم - خاصة بعد التحاقهما بالعمل - زوجان محترمان متقدمان فى السن والقدرة المالية فيهيئان لهما الحل الممكن. انه زمن الكهول والأوغاد.

- ٦ -

ما هذه البهجة المنعشة؟

لقد وهبتنى ابتسامة. مضيئة وبريئة كالوردة اليانعة. تبادلنا الكلمات عند كل مناسبة ثم جادت بالابتسامة. خلقت الابتسامة حياة جديدة. غلفت الانفعال البهيمى بعذوبة صادقة. نمت الشجرة وتفرعت وتعذر أن تنعت بصفة واحدة.

وتساءلت أهكذا تتحول الغريزة الى عاطفة؟. وكنت أخلق المجال تلو المجال لحديث. قلت لها :

ـ حذار من البطالة!

فقالت بحيرة:

ـ انهم لا يعهدون الينا بعمل.

ـ ستنسين ما تعلمته.

ـ العمل نفسه هنا مقطوع الصلة بما تعلمته.

ـ ماذا كان تخصصك؟

ـ التاريخ.

ـ لولا ضوضاء المكان لاقترحت عليك القراءة.

ـ لا أحب القراءة الا نادرا

ـ جيل التلفزيون؟

فضحكت بصوت غير مسموع وقالت:

ـ ليس تماما.

ـ وحذار من الملل.

ـ اليوم طويل حقا، ماذا تفعل أنت؟

ـ أتسكع وسط المدينة..

ـ لا يناسبنى ذلك.

ـ لا مفر من أن تجديه مناسبا ذات يوم.

ـ المهم ألا نعتاد الكسل!

فقلت بأسف صادق:

ـ كنت طالبا مجتهدا، حتى العطلة السنوية لم تخل من نشاط واطلاع أما اليوم فقد أصبح التسكع مذهبى.. كيف تمضين وقتك؟

ـ لى أخوات وصديقات، هناك التليفزيون دائما، وأحيانا السينما أو المسرح.

لم يعد فى الدنيا ما يستأثر بوعى أكثر منها. لها الغريزة العقل أيضا. ومن عجب أن مظهرها انتبهت اليه مؤخرا نسبيا. تعاملت مع المضمون قبل الشكل. وعندما حدثتنى عن السينما والمسرح أدركت أنها تطل على من

مستوى أرفع، عند ذاك ركزت على البنطلون الرمادى والحذاء ذى الرقبة والبلوزة المزركشة والجاكتة الجلدية. انيقة وثمينة. ترى ما وراء ذلك؟. الزمن يطرح احتمالات شتى. وانى أحلم بالزواج ولكنى أرحب بالفرص. عاطف هلال ذو مال وبنين فهو يحتقر الحلول الفردية!. وهو لم يصل الى مركزه المرموق الا بحل فردى انتهازى. ووجدتنى أتذكر عهد الدراسة. . أتذكر التيارات التى انتظمت الطلبة. أبناء الأغنياء الذين ينعمون بالاستقرار ولا يهتمون كثيرا بالدراسة. فقراء يحلمون بالشهادة من أجل الوظيفة. متمردون يضربون فى عوالم الأحلام ويرفضون كل شئ. كنت فى مكان وسط بين الصنف الثانى والثالث. أحلم بالوظيفة اكراما لعناد أسرتى وأكن للمتمردين الاعجاب والتأييد. كثيرا ما يتعرضون للتحقيق والمطاردة، ومنهم من انتهى الى السجن. ترى الى أى فريق تنتمى رجاء؟. على أن الاحتمالات أوسع من ذلك. وانى أريدها من أى سبيل ممكن وان ظل الزواج حلمى المنشود. لذلك لم أدع فرصة تفلت لتوثيق مودتنا حتى نطق لسان حالى بما أحلم به. وتشجعت ذات مرة فدعوتها الى لقاء ضمن رحلة للتسكع..

ـ ٧ ـ

ما هذه البهجة المنعشة؟!

فاضت نفسى بهذا المعنى وأنا أراها مقبلة نحو موقفى أمام الأمريكين. فى تلك اللحظة شعرت بأننى بت من كبار العاشقين فعاهدت الله ألا أسئ اليها ما حييت قط. غصنا فوق أريكتين جلديتين يفصل بيننا خوان معدنى. وضعت حقيبتها السوداء على طرف الخوان وراحت تمشط بعض خصلاتها كما رحنا نتبادل النظر فى هدوء وحب استطلاع. طلبنا الشاى ليدفئنا فى الجو البارد وشملنا من بادئ الأمر تفاهم حميم. لا ظل من الغموض يطرح نفسه على الدعوة من جانبى والتلبية من ناحيتها. كلانا ناضج ويعرف ما يريد. وان تكن صداقة فهى واضحة الهدف. قد تعنى من جانبى ميلا ربما حبا وبحسبها أن تعنى من جانبها أننى موضوع صالح للتجربة. ألا يعنى ذلك القبول من ناحية المبدأ؟! سألتنى:

ـ هذا مكان تسكعك؟

فقلت وأنا أقدم لها وعاء السكر:

- التسكع فى الشوارع ولكنه لا يصلح للقاء.

- وكيف تطيق الزحام؟

- انها القيامة ولكنها خير من القعود ست ساعات فوق مقعد خشبى..

فابتسمت قائلة:

- انه نوع من العقاب ولكن الزحام لمثلى غير مأمون!

- ماذا تركبين فى الذهاب والاياب؟

- نحن نقيم فى شارع الشهيد عبد الملك فيما وراء دار القضاء العالى فلا حاجة بى الى الباص..

ثم مواصلة حديثها بسراعة:

- لولا ذلك ماقبلت الوظيفة!

فقلت بقلق:

- اذا فأنت غنية!

- ابدا، أبى موظف، موظف كبير اذا شئت ولكن ذلك لم يعد يعنى شيئا.

وجدت فى قولها متنفسا للراحة وقلت:

- الحال من بعضه حتى وان لم يكن متطابقا.

وانتهزت الفرصة فقدمت لها صرة أمينة لأسرتى متوخيا الصدق فى الأمور الجوهرية ودون تطرق الى التفاصيل الحرجة ثم سألتها:

- لك أخوة؟

- ثلاث بنات كبراهن بكلية الطب.

- الحق أن الحياة عبء ثقيل.

فأحنت رأسها الرشيق مؤمنة على قولى فقلت:

- خاصة للشرفاء.

- كان أبى (محمد جاد) محاميا مرموقا، ثم تغير الحال عقب التأميمات فقبل وظيفة مدير الادارة القانونية بشركة ا.م.د.

قلت لنفسى ان مثله جدير بأن يملك مدخرات لا بأس بها فهو خير من الموظف العادى. ليس بالغنى ولكنه ليس بالفقير أيضا. ثمة أمل ولكنه ضعيف. وقلت ملقيا مزيدا من الضوء على موقفى:

- أسرتى لن تعرف الراحة قبل ان تتوظف أختاى، وأمل أبى متعلق بهجرة ثلاثتنا الى بلاد العرب.

- على أختيك أن يختارا مهنة مطلوبة كالتعليم.

- أنت لا تفكرين فى ذلك؟

- انى أمقت هذه الفكرة أرجو الا أحتاج اليها أبدا،،

انقبض صدرى بعض الشئ لكن ذلك دفعنى الى مزيد من الجرأة فسألتها:

- كيف تتصورين المستقبل؟

فتساءلت متغابية:

- ماذا تقصد؟

- لا يمكن أن تعيشى بلا حلم ما؟

فضحكت قائلة:

- أنا لا أحلم.

- كل انسان له حلمه.

- حقا؟.. فما حلمك أنت؟

فقلت متماديا فى جرأتى:

- الحق أنى أحلم بشريكة لحياتى..

فرمشت كالمرتبكة ولاذت بالصمت فقلت:

- هذا هو حلمى.

فتساءلت شاردة:

- ماذا يمنعك من تحقيقه؟

فلم أدر ماذا أقول اعتقادا منى بأننى قلت كل شئ فسألتنى

- لم لا تتكلم؟

- قلت ما فيه الكفاية، أن لك أن تتكلمى أنت..

واذا بها تقول بجدية تامة :

- لقد تعرضت لتجربة غير سارة ..

فحدجتها بنظرة مستطلعة فقالت :

- تقدم لى موظف من مرءوسى والدى وفشلت التجربة أمام عقبات لا يمكن التغلب عليها..

فتساءلت بأسى لم أستطع اخفاءه:

- ماهى؟

- المهر.. المسكن..

فقلت متعلقا بآخر خيط:

- ليس التغلب عليها بالمستحيل.

- حقا؟

- ان يكن بوسع الأب الاستغناء عن المهر، أو يكون من الممكن اخلاء حجرة فى البيت للعروسين!

فهزت رأسها بأسف مما يعنى النفى. فى الصمت الذى تلا اعترفت بالاخفاق. جاءت مدفوعة بحب الاستطلاع والأمل فتلاشى كل فى هيكل الحقيقة العارية. لعلها تتأسف الآن على ضياع الوقت سدى. ولعلها تفكر فى انتحال سبب لانهاء اللقاء. وقلت بلا روح:

- حسبنا صداقتنا الحميمة.

غمغمت شاكرة. ولم يبق الا أن نغادر المكان ليرجع كل منا إلى الشركة من طريق.

- ٨ -

قلت لنفسى انه لا مفر من النسيان. لا مفر من الواد. الأمل والغريزة متعلقان بها، يتسلطان على بكل قوة، يستأثران بأحلام اليقظة، يعذباننى ليل نهار ولكن لا مفر. مازلت فى أول الطريق. وهى لا تبادلنى احساسا أو عاطفة. ما هى الا فتاة عاقلة تبحث عن زوج مناسب. انه حق مشروع ورغبة نبيلة. ويبدو أنه لا يحركها طمع لا آمال جامحة، انها عاقلة تماما. لم تجرب الحب أيضا أو هذا ما أظن. داخلنى شعور قوى مؤثر بأننى لن أجد فرصتى فى «العقل» أبدا. ما فائدة العقل فى عالم لا معقول. لا مفر. وعليه فلا تجنب مبادلتها الصداقة ما امكن ذلك. ولأهجر الادارة مبكرا عن العادة رجعت الى الفراغ. الفراغ المحتدم بالعذاب والملل. إنه يتجسد لعينى كما تجسد الموت فى مقدمة السيارة، كائن محسوس، غير محسوس، يقطر كآبة رفضا للحياة. قبضته الخانقة تفشى لى سر المدمنين. مدمنى الخمر والمخدرات والقمار. لكننى محصن بمثالية باهتة وبالفقر.. لعل الأوفق لى

أن أملأ الفراغ بالسياسة. مازلت على صلة تعارف بالزملاء القدامى. يمكن أن أطوف بهم للمناقشة والاختيار. شعار عاطف هلال صالح للتطبيق. انه يدعو كثيرين من ذوى الارادة ويصلح أيضا لليائسين. انها مجرد خواطر تعبر رأسى سادرة ولكن أخطر القرارات قد تبدأ من خواطر سادرة. يتسلل الى النفس كالمزاح ثم ينقلب جدا كل الجد. لكننى أقنع بمداعبة الأفكار. ومداراة الغريزة الطاغية. سيحدث شئ ما فى وقت ما. شئ قريب. أو بعيد لن تمضى الحياة فى فراغ الى الأبد. الهجرة أو السياسة أو مغامرة لا تخطر بالبال. الأيام تمضى. الحركة بطيئة فى الشارع ولكن الأيام تسرع. رجاء تحرك أحلام اليقظة. ملكتها فى الخيال بقدر مافقدتها فى الواقع.

- ٩ -

تعرض بيتنا بشارع الشمردل لغزوة قوية. تقدم سباك فى الثلاثين من عمره يدعى أحمد عبد المقصود لطلب يد نهى. قال أبى ونحن مجتمعون فى الصالة:

- ما على الرسول إلا البلاغ، أبوه عامل بالحديد والصلب، يحمل شهادة صناعية متوسطة، عمل فى السعودية أعواما خمسة، يملك شقة فى المعادى وسيارة نصر..

شملتنا حيرة. وقالت أمى مقطبة:

- ليس من مقامنا!

فقال أبى بمرارة:

- عم تتحدثين؟.. انتهى مقامنا من زمان..

فقالت أمى:

- انها لم تتم تعليمها بعد ولابد أن تتمه..

فقال أبى:

- انه يريدها ست بيت.

فقالت أمى:

- لم نعدها لذلك..

فقال أبى:

- انه أسهل من تعلم الطبيعة والكيمياء.

فقلت:

- العمل ضرورى لها حتى لا نتركها تحت رحمة المجهول.

وتحولت نحو مها متسائلا:

- ما رأيك يامها؟

فقالت بوضوح:

- لم نسمع صوت صاحبة الشأن..

فقال أبى:

- الكلمة الفاصلة لها طبعا.

وتلاقت النظرات فوق وجهها حتى عطفت مها عليها فقالت:

- أمهلوها لتفكر..

وقلت أنا:

- ثم أنها لم تره.

فتساءل أمى:

- يهمنى أن أعرف هل تقبله من حيث المبدأ؟

فقلت باصرار:

ـ بل هو مقبول من ناحية المبدأ، أنه يتنمى اليوم الى طبقة أعلى..

فهتفت أمي:

ـ أنك تخلط الجد بالهزل!

حدثت الزيارة التقليدية فوجدته مقبول الصورة ولا عيب فى مظهره ألا مبالغة فى التأنق حساسية بالذات ملتفة للنظر. ووضحت مواقفنا بين رفض من ناحية أمى وحياء شمل ثلاثتنا أبى ومها وأنا، وما أدرى ألا ومها تقل لى ونحن ننتظر الباص صباحا :

ـ نهى موافق!

ـ من ناحية شكله لاب أس به.

ـ من ناحية الموضع أيضا.

فسألتها بتألق:

ـ أه قرار أملاه اليأس؟

فقالت بضيق:

ـ فسره كما تشاء..

وفرضت الموافقة نفسها علينا جميعا أن أمى قالت بغضب مخاطبة أبى:

ـ المسألة أنك وجدت زوجا لن يكلفك مليما واحد.

فسألها بمرار:

ـ هل لديك مال تخفينه عنا؟

ودعوت لها من قلبى بالتوفيق

ـ ١٠ ـ

ـ ما هذه البهجة المنعشة؟!

وأنا أغادر الشركة مبكرا للتكسع وجدت رجاء كالمنتظرة عند الباب، أقبلت نحوى هامسة فى عتاب حاد:

ـ أين أنت؟، كأنك هاجرت من البلد!

غزتنى فرحة راقصة سمت بى إلى أرفع سماوات السعادة، طالما ظننت أنها نسيتنى تماما، وأن عقلها الحكم قد حذفنى من جدل الأحتمالات، عتابها أقتحمنى كنغمة عذبة

منعمة بالنداء. فيه العقاب والشكوى والرغبة والأعتراف، فيه ما يغير مذاق الدنيا فى ثوان مثلما تغيرها الفصول فى أشهر، فهل يفرق بين اليأس والأمل ألا خيط الفجر؟.

حوالى العاشرة كنا نجلس بمجلسنا فى الأمريكين، قلت معبرا عن أمتنانى:

ـ جزاك الله كل خير فقد أعدت خلقى من جديد..

تخففت من ارتباكها ناقرة على سطح الخوان بظفر أحمر على هيئة لوزة مصغرة. قلت:

ـ توهمت أن لقاءنا الأول هو الأخير، وعزمت على النسيان بأى ثمن، ولكن الحب أقوى من كل شئ.

فهمست باسمة:

ـ ولكنك لا تكاد تعرفنى..

ـ عرفت ما يكفى لخلق الحب فى أقوى أحواله..

ـ خيل الى أنك نسبتنى تماما..

ـ تمنيت ذلك، وتبدد هباء ما تمنيت..

فقالت باسمة:

- وها نحن نلتقى لنتقاسم العذاب!

فقلت بحماس خلقته نشوة الظفر:

- مع الحب الحقيقى لا توجد مشكلات..

- حماسك جميل ولكنه عاطفة وليس معجزة.

- هل هو فى الأصل معجزة، علينا أن نعتبره كذلك، فى أى شرع يجوز أن يفرق بين قلبين أشياء مثل شقة وأثاث ومهر؟! فابتسمت فى أسى وتمتمت:

- أنك تحلم بحياة كالطيور.

فقلت باصرار:

- لدينا الحب والارادة والحياة التى لا ترحم الأغبياء فلنتعاهد على الا يفرقنا شئ من الوجود..

فتورد وجهها حيرة وسعادة فقلت النشوة ترقى بى فى مدارج السكر:

- فلنتعاهد!

فهمست:

ـ كما تشاء.. ولكن أما آن لنا أمن نفكر؟

فخفت أن أفيق من نشوتي فقلت:

ـ علينا أن نعلن خطبتنا في الحال!

ـ ماذا؟

ـ أن نعلن خطبتنا في الحال..

ـ لو اقتصرت الأمر علينا لهان.

ـ علينا أن تقنع الأهل..

ـ مهلا.. ماذا نقول لهم؟

ـ اننا سنعلن خطبتنا ونحل مشاكلنا بنفسنا!

ـ ولكن..

فقاطعتها:

ـ لكل منا عمله واستقلاله.

ـ ألا نفكر قبل أن نقدم؟

ـ بل نقدم أولا..

ـ أخاف أن نجعل من أنفسنا..

قاطعتها:

ـ فلعلن خطبتنا، يجب ان نحقق نصرا ما. ولك على بعد ذلك أن أسطو على البنك الأهلى عند الضرورة!

غادرنا المكان وأنا أردد فى باطنى «ما هذه البهجة المنعشة!»

ـ ١١ ـ

يبدو أن رجاء اعتبرت ما دار بيننا دردشة غنائية فأصرت على لقاء ثالث لنناقش قرارنا بهدوء. قلت لها:

ـ رجاء، اذا استرشدنا بالعقل فعلينا ان نسلم بالفراق الأبدى.

كانت تقدم رجلا وتؤخر رجلا. كانت تشاركنى لرغبة ولكنها تخاف لعواقب. قلت:

ـ انى مخلص، يلزمنى عمر طويل لكى أقتصد المهر، وثلاثة أعمار لأجمع خلو الرجل، فاذا لم يكن من التعقل بد فلنفترق..

فقالت بقلق:

ـ سيرون فى سلوكنا ما يقطع بجنوننا!

ـ يلزمنا قدر من الجنون نلقى به عالمنا المجنون..

ـ يحزننى أننى سأغضب أعز الناس على..

ـ اما أن نغضبهم واما أن ننتحر..

فتفكر مليا ثم تساءلت:

ـ هبنا فرضنا ارادتنا فماذا بعد ذلك؟

ـ لو ان لدى خطة جاهزة ما كتمتها عنك، ولكن تحملنا للمسئولية سيدفعنا الى التفكير، الى قهر المستحيل..

ولو وجدنا الطريق مسدودا؟

ـ الطريق المسدود شعار العاجزين، ثم الا يستحق حبنا المغامرة التجربة؟

وكانت فى صميمها عازمة على المغامرة..

ـ ١٢ ـ

خاض كلانا معركة عائلية على تفاوت فى العنف والحرج دهش أبى وتساءل:

ـ تخطب؟!!

لكن مرارة الحياة روضته على الاتسهانة بما يعده من الأمور الثانوية. وتساءل مرة أخرى:

ـ أأنت على استعداد؟

فقلت ببساطة:

ـ لا استعداد ولا خلافه.

فقالت أمي:

ـ أنت تعلم أنه ليس لدينا..

فقاطعتها:

ـ انى أعرف كل شئ..

فتساءلت برجاء:

ـ لعل أهلها أغنياء؟

ـ كلا..

فتمتم أبي:

ـ قرار خاطئ ولا شك.

فقلت باصرار:

ـ لن أعدل عنه.

فرفع الرجل منكبيه قائلا.

ـ أنت حر، وأتمنى لك التوفيق.

أما رجاء فقد خاضت معركة حقيقية. انهالت عليها الأسئلة وجاءت الاجابات كلها بالنفى. ثار الغضب كما ثار الكبرياء. رميت بالجنون. تدخل أقرباء وقريبات. أصرت رجاء على طلبها، بل هددت باعلان خطبتها خارج نطاق الأسرة.

* * *

كانت تجربة عسيرة أن أمضى الى عمارة الشهيد عبدالملك وأنا على علم كامل بمشاعرهم نحوى، وبأنهم يعتبرننى وباء أفلت من المراقبة الصحية. الحق أن مها صدقت عندما قالت :

ـ ان جرأتك تستحق الاعجاب..

وقد أرهقتنى ابتياع الدبلتين، أما الشبكة فقد اشتريها رجاء ودستها الى لأهديها اليها فى الحفل الكئيب. ولم تعلق

خارج المسكن أو داخله علامة من علامات الأفراح، وندت لوجوه عن بصمات متكلفة أخف منها العبوس.

وقال لى الأستاذ محمد جاد:

ـ طبيعى أن أتمنى لكما التوفيق، لا تسئ الظن بنا، ستكون يوما ما أبا وتعرف..

أما حرمه ـ أم رجاء ـ فقالت لى:

ـ نحن دائما متهمون، لماذا؟، أيوجد اثاث بلا مهر؟، هل يعيش ابن أدم بلا مأوى؟، أيوجد أب أو أم بلا قلب؟!

انه صوت العقل. هو مايعترضنى دائما بجدار صخرى. لم يبق الا أن تجرب الجنون. اذا صدك عن السعادة فجرب الجنون أليس ذلك من العقل أيضا؟!، ما يستحق اللعنة حقا هو الاستسلام. ونحن نلقى الاهمال والضياع على حين تتغنى الحناجر بالوعود المعسولة. وتحديث الظلام.

ـ ١٣ ـ

حققنا الرغبة واستقرت الدبلة فى البنصر، وأثملنا احساس حميم بأننا بلغنا غاية ما وراءها غاية. وسرعان ما أدركت أننى لم أقطع الا الخطوة الأولى. أجلنا مناقشة

المشكلة استبقاء للصفاء ولكنها أستوت على الأفق مثل نذير النشرة الجوية. ولم يحرجنى أحد من أسرتى فيسألنى مثلا «وماذا بعد ذلك؟». مها وهى أقربهم الى همست لى يوما:

- لعله عليك الآن أن تخصص لى جنيها شهريا من مرتبك شهريا؟

فضحكت ضحكة عصبية وقلت:

- أتظنين أن توفير نقطة ماء يجدى لملء بحيرة؟

فقالت باهتمام:

- أظن أنه فى وسع والدها أن يحل المشكلة.

فقلت بامتعاض:

- انه حقا موظف كبير ولكنهم أصبحوا جميعا يتبعون كادر الشحاذين، ومدخراته تفى بالكاد بأعبائه، ولعله يستطيع أن يقوم بالواجب اذا قدم الطرف الآخر الشقة والمهر..

- اذن فما هى خطتك للمستقبل؟

فلقت ضاحكا:

ـ لا أملك الا ارادتى!

وغامت نظرتها بالتفكير، ربما فى حالها أيضا، حتى سألتها:

ـ فيم تفكرين؟

فقالت وهى تتنهد:

ـ تمتعوا بشبابهم فى أيام يسر ورخاء ولم يخلفوا لنا الا الأطلال!

ودأبت على زيارة آل جاد بشارع الشهيد عبدالملك من حين لآخر. أملت أن أظفر بعلاقة صادقة مع المسئولين، ولكن أم حبيبتى تصدت لى هناك كالصخرة، وضنت على حتى بالإبتسامة العابرة، وما من زيارة الا وذكرتنى بالواجبات المقدسة، الشقة والمهر، وفى مجلس الأمريكين قلت لرجاء:

ـ الهجرة.. الأمل فى الهجرة..

فسألتنى والحق أنها لم تطرق الموضوع حتى فتحته لها:

ـ ما هى فرصتك؟

ـ عمل قانونى فى شركه ما، انى اتابع الاعلانات فى الصحف، انها فرصة نادرة..

- لكنها محترمة.

- الحق أنى ما أجبت القانون أبدا، لقد اقتحمنى مثل حوادث الطريق..

***

انى انتظر معجزة. أنتظر عونا من الخارج. خارج ذواتنا، لم أتعلم شيئا ينفعنى. أحمد عبدالمقصود يعيش عصره أكثر منى ألف مرة. انى أتحدى وأحلم ولكنى لا أفعل شيئا. وضاعف من حدة مسئوليتى أن عرف الزملاء فى الادارة بخطبتنا. انهالت علينا التهانى والأسئلة. هذا السؤال اللعين:

- وجدتم الشقة ؟

- دفعت الخلو ؟

ما هو الا مزيج من الاحراج. تضخمت المسئولية التى حملها. الأيام تمر. الأسابيع والأشهر. ينظرون الى كطفيلى يقف عثرة فى سبيل شابة ممتازة. ولم تسكت عنى الأسئلة حتى فقدت أعصابى اختنقت بمشكلتى المستعصية.

وسألتنى أم رجاء ذات مرة:

ـ حتى متى ننتظر؟

وأفصحت عن مشروع لأول مرة ـ بعد موافقة رجاء سرا فقلت :

ـ هنالك حل ممكن، جهزونا، واعتبروا نصيبى دينا يرد عند الميسرة.

فهتفت الأم محتدة:

ـ ياله من اقتراح لا أحب أن أصفه، حسبى أن أخبرك أنه مستحيل التنفيذ.

ـ لماذا؟

فصاحت:

ـ انه غير لائق!

همست رجاء برجاء:

ـ ماما!

وقلت أنا منفعلا أشد الانفعال:

ـ لا حيلة لى ولكن لا داعى للاهانة..

فقالت الأم بحدة:

ـ افسخ الخطبة..

فقلت بالحدة نفسها:

ـ لا أقبل أمرا الا من رجاء.

فصاحت الأم:

ـ ان كنت تحبها فابعد عن طريقها!

ولم تكف الا حين أفحمت رجاء فى البكاء.

ـ ١٤ ـ

رجعت الكآبة بسمائها الشاحبة وهوائها اللافح المشبع بالتراب. زادها الصيف احتداما ففتر نشاطى الروحى وغطاه الرماد. رغم جرأتى عانيت حساسية شديدة. تمخض الموقف الباهر لعينى عن انانية تتجسد كالبلطجة. وقلت لبقايا الحلم الوردى «لا». لعلها لاحظت كآبتى فى اليوم التالى فى الأمريكين فقالت لى:

- انى معك حتى النهاية.

ومع أننى تلقيت قولها مثل شربة مثلجة فى يوم قائظ الا أننى قلت:

- ليبعد الله عنك شر هذه النهاية.

فتساءلت بقلق:

- ماذا حل بروحك؟

فقلت بوضوح:

- ليس الحب أن أضحى بك على مذبح جنونى.

- مازلنا فى أول لطريق وسوف نجد حلا ما .

- أين الحل؟.. المسألة افظع مما تصورنا وانت الخاسرة!

فقالت بعتاب:

- أحسبتنى قاصرة؟.. لا تعتبرنى ضحية من فضلك.

- هذا هو سر جنونى الباهر ولكنه هو أيضا ما يملى على ما ينبغى عمله..

- ماينبغى عمله؟

- لا يجوز أن تبقى خطتنا اكثر من ذلك بلا حل واضح..

فقالت بانفعال:

- شخص آخر يتحدث، أنسيت..

فقاطعتها:

- لم أنس، كنت مجنونا، لقد أسأت اليك اساءة بالغة، الجميع يدركون ذلك لا والدتك فقط، الجميع حتى الزملاء، لا شك أنك تسمعين وتفهمين.

- لا أهمية لذلك..

- نبل وشجاعة ولكنك تسيئين الى نفسك بلا أمل، رجولتى تأبى على ذلك، حبى يؤنبنى ويتهمنى، لا.. لا..

فقالت بحدة:

- انى صاحبة الحق فى القول الأخير.

- لى حق أيضا، بل هو واجب، على المجنون الا يجر الآخرين الى جنونه..

- كنت غفى جنونك أفضل منك الآن ألف مرة..

فقلت بتصميم:

- انى آسف، ولست فى حاجة الى أن أؤكد لك حبى..

فهزنى اليأس، وكنت مصرا بقدر ما كنت يائسا..

- ١٥ -

مافعلته بنفسى لا يصدق. استيقظت عقب ليلة مسهدة لأرى حقيقة بشعة ترصدنى لتقول لى بصوت فظ: «اختفت رجاء من حياتك». ترامت الى أصوات الطريق كأنما هى نعى للوجود، نعى لأى معنى. لم أحيا؟!. كيف أعاشر هزيمتى الى لأبد؟!. بودى أن أبصق على كل فكرة خطرت وكل فعل نفذ.

قال أبى لى بأسى:

- انى حزين على، وددت لو كان بوسعى مساعدتك.. واغتمت أمى حتى دمعت عيناها.

الحزن يتغلغل فى أعماقى كلها ولكنى لم أجد بدا من حمل حياتى والمضى بها. واستسلمت لرد فعل غضبى فقابلت وكيل الادارة وسألته أن أنقل الى ادارة أخرى مقدما

أسبابا ذلك ونقلت الى ادارة المستخدمين عاطلا كما كنت. وصارعت أشواقي والأيام تمر مثقلة بأنفاس الصيف. رجوت أن يتلاشى الحب مع الزمن، جوت أن تحرر هى من كافة القيود لتسترد رونقها البهيج. فى تلك الأيام تابعت باعجاب مغامرات الارهابيين فى الصحف. انهم ينفجرون فى أركان البلد معلنين عن نبض جنين ينم فى رحم الغيب. انبعثت من قلبى المحطم أخيلة مطلقة مرقت فى الفضاء وغاصت فى اعماق المحيطات. وجعلت أتآمر مع خلايا الأحياء وذرات الجمادات. ولم يخمد الحب ولم يبرد الشوق وتمادت الغريزة اشتعالا.

***

وقادتنى قدماى إلى مقهى الحرية فلمحت الأستاذ عاطف هلال فى مجلسه. أقبلت نحوه بتلقائية وتوتر مشحونًا بالاحتقار. حييته قائلاً:

- لعلك تذكرنى..

فرمقنى بنظرة طويلة وشت بعجزه عن تذكرى فقلت:

- أنا صاحب المشكلة الجنسية..

فالتمعت عيناه وقال ضاحكا:

- آه.. لامؤاخذة.. السن والشواغل.. أجلس.. جلست فراح يقول متسائلاً:

- لعلك وجدت الحل؟

فدفعنى العبث لأن أقول:

- الحل الكامل..

ثم مستسلماً أكثر للعبث:

- سأنضم قريباً إلى أصحاب الملايين!

فارتفع حاجباه الأشيبان الهائشان وتساءل:

- حقا؟

فقلت بثقة لا حد لها:

- بكل تأكيد.

- كيف؟

- الأسرار لا تباح!

فهز رأسه هزة الخبرة وقال:

ـ إنها مسجلة فى جدول محفوظ..

فابتسمت فيما يشبه الطمأنينة فسألنى:

ـ أأنت سعيد؟

ـ طبعا.

ـ لأنك مازلت فى أول الطريق.

ـ هذا حق.

ـ أما سمعت عن الذين يربحون الدنيا ويخسرون أنفسهم؟

فقلت كاتما سخريتى:

ـ كيف لا وأنا أحدهم؟!

فقال بنبرة مأساوية:

ـ خسارة النفس لا تعوض.

فقلت منفعلا:

- كذب.

استاء ولا شك من لهجتى فصمت مقطبا فقلت بسخرية:

- تحرر من الأكلشيهات لتعرف الدنيا على حقيقتها.

فقال متضايقا:

- إنى أعرفها خيرًا منك.

فإندفعت أقول محتدًا:

- ماذا كنت؟.. وماذا أصبحت؟.. وثبت فى الوقت المناسب من السفينة وهى تغرق..

تساءل فى إنزعاج:

- ما هذا؟

فقلت مستزيدا فى التمادى:

- أنت أيضًا من الذين ربحوا الدنيا وخسروا أنفسهم..

فهتف غاضبًا:

- لقد جئت بقصد إهانتى ولن أسمح لك بالبقاء بعد ذلك..

قمت. غادرته دون سلام، وتحت الشمس المحرقة فى الخارج شعرت بإنشراح فضحكت. ماذا قلت؟، كيف تأتى لى قوله؟، الحوار من جانبى مرتجل من ألفه إلى يائه. المقابلة تمت بغير خطة سابقة. إنتشيت بمرح عارض وأنا أمضى فوق قاعدة راسخة من الألم. وفى صباح اليوم التالى بدأت بعاموده اليومى فى الصحيفة فوجدته يتحدث عن الطوفان الجديد، وأنه لن ينجو من الغرق إلا من يلوذ بسفينة المبادىء. الحق أنه ليس أسوأ من غيره، ومقالته تفهم على وجهها الصحيح إذا إعتبرت نوعًا من النقد الذاتى الخفى، واعراباعن الاغتراب الذى تطوعوا لاعتناقه.

وفى مرحلة متأخرة من رحلة الآلام - وأنا أتسكع على غير هدى - اقتحمنى الهام منعش. مجهول الأسباب مقطوع الصلة بالواقع، على مقربة من الأمريكين تألق الإلهام وتوهج، دفعنى إلى دخول المكان بقوة واعدة بالمعجزة..

- ١٦ -

رأيت رجاء فى مجلسنا كأنها تنتظر. تسمرت أمامها .تلاطمتنى أمواج إنفعالات متضاربة. مضيت أخرج من ليلى الحالك إلى نهار مشرق. إنهمرت فوقى أعذب الحان

الوجود ونشواته. مؤيدة بقوة تستطيع أن تفعل ما تشاء. إرتميت إلى جانبها صامتا. تنفست بعمق لأسترد شيئًا من الهدوء. تساءلت بصوت هامس:

- ماذا جاء بك؟

فسألتها بدورى:

- ماذا جاء بك؟

فقالت بعتاب:

- إنك ماهر فى الإختفاء فلم أر بدًا من الجرى وراءك..

تذكرت آلامى بندم وأسف فواصلت حديثها:

- كأنك كنت تهرب من هذا المكان أيضًا..

- هل ترددت عليه قبل هذه المرة؟

فحنت رأسها بالإيجاب فقلت:

- آسف جدا.

ما فائدة الأسف؟

ـ سعادتك هى ما كانت تهمنى..

ـ وفرت لى من الشقاء ما يشفق منه العدو.

ـ أما آلامى فلن أحدثك عنها..

فقالت بحرارة:

ـ أرجو ألا تتصرف بغباء بعد الآن..

فقلت بقوة وايمان:

ـ لن نفترق أبداً.

فابتسمت بعذوبة فقلت:

ـ لن نتراجع حيال عقبة.

ـ لم أكف عن التفكير لحظة واحدة.

فهتفت:

ـ هذا هو الخطأ!

ـ ماذا؟

ـ التفكير فى مثل حالنا هو خصمنا..

فابتسمت قائلة:

- لقد جربنا الارتجال؟!

- ونجحنا، ولم نفشل إلا بالاذعان للتفكير..

فقالت بقلق:

- أخشى أن نجعل من أنفسنا اضحوكة للدنيا..

فقلت بتصميم وهدوء:

- لنتزوج فى الحال!

فرمقتنى بذهول فكررت :

- فى الحال.

- أتعنى ما تقول؟

- بكل جدية، ودون الرجوع إلى أحد.

فتساءلت لحيرة:

- ثم ماذا؟

- أجلى هذا السؤال إلى ما بعد الزواج وسوف يتبدى لنا فى صورة جديدة تماماً..

- ربما وجدت فى الزواج ما وجدت فى الخطبة من قبل؟

- إنى أعرف الآن معنى الفراق كما أعرف قيمة الجنون..
فتفكرت فى قلق واضح ثم تمتمت:

- الناس.. الناس.. التعليقات.. أف..

فقلت مترفقا بها:

- لنبدأ فى سرية مؤقتة.. ايريحك هذا؟

فتساءلت فى حيرة:

- لم نكره التفكير؟

فقلت بسخرية:

- أى تفكير؟.. ما هو ألا ترديد لأصداء ماض علينا أن نحطمه..

- ١٧ -

سرنا معًا متلاصقين بعد أن تقرر مصيرنا بأجرأ خطوة أقدمنا عليها فى حياتنا. كنا نشعر بدفء داخلى رغم برودة الخريف المودع كما شعرنا بطمأنينة ونحن نخوض دنيا لم تعترف بعد بنا.

بيد كل منا وثيقة ملكية تشمل الروح والجسد. وبقلبي شعلة استأثرت بجوارحي فتناسيت الأمور المعلقة. سألتني في مرح:

- كيف تشعر؟

فقلت دون تردد:

- بأنني انتزعت المسئولية من أيدي المغتصبين..

- أظن أن التفكير الآن لا يعتبر جريمة..

- يوجد الآن ما هو أهم..

التفتت نحوي متسائلة:

- ما هو؟

- أن نجد مكانًا نرتاح فيه ولو ساعة من زمان..

فقالت وهي تداري ابتسامة:

- المسألة أكبر من ذلك.

- أجل، ولكني أسير هذه اللحظة، الأخيلة المرحة تطاردني. فقالت بعتاب:

- إنى أسيرة أفكارى أيضًا..

ربت على يدها وقلت بعجلة:

- لا مستحيل بعد اليوم، ممكن أن تقنعى نفسك بالتعليم وأقنع نفسى بالقانون ثم نهاجر..

- طالما كرهت ذلك..

- أنا مثلك، فلنعمل ما نكره لنعيش ما نحب.. لكن يلزمنا مكان!

- مكان.. مكان.. أنت تضحكنى..

فقلت وأنا أتصفح وجوه العمارات:

- فندق.. بنسيون..

فهتفت:

- ماذا؟.. لا حقيبة معنا!

فقلت بجدية محمومة:

- معنا تحقيق الشخصية والوثيقة الشرعية..

- سلوك غريب..

- لا تتعلقى بالأوهام الفارغة، سترجعين إلى بيتك فى الوقت المناسب!

فقالت وهى تدارى ابتسامة:

- إنك تفكر مثل مراهق!

فقلت مدافعًا عن نفسى ومتذكرًا فى الوقت نفسه لتاريخى الأليم:

- ولكنى أتصرف كرجل..

- ١٨ -

لقاءات نهارية، قصيرة العمر، متباعدة على قدر ما تسمح به الميزانية. لأول مرة أشعر بأنى أنضج كإنسان وكعاشق. لم تشاركنى رجاء أفراحى بنفس القوة. حثنى ذلك على مواجهة الحقائق. قلت لها:

- الهجرة هى طريقنا الواضح.

فقالت بعصبية:

- لا أدرى كيف سأتحمل العمل الجديد.

فقلت رغم مشاركتى إياها فى موقفها:

- هو خير من البطالة ثم إنه سيهيىء لنا عش الزوجية.

- العمل بلا حب نوع من السخرة.

فقلت برجاء:

- ثم يجىء الحب مع النجاح وهناء القلب..

فتساءلت بقلق:

- ثم من أدرانا أن ذلك الهدف الثقيل ميسور فى النهاية؟

فقلت بقوة أغطى بها قلقى:

- أعتقد أنه غير مستحيل ثم إنه توجد تجارب أخرى..
أدركت عند ذلك أنى أسير بها نحو الفندق فشدتنى إلى شارع ماسبيرو وهى تقول:

- كرهت التردد على الفندق..

فرمقتها بعتاب فقالت كالمعتذرة:

- الجميع يدركون لماذا نجىء، ما أفظع نظرات الموظفين والخدم!

- ألا تستطيعين أن تقلدينى فى عدم المبالاة بالآخرين؟

- فعلت الكثير ولكننى أعجز عن مجاراتك!

إنزعجت حقًا وقلت وكأنما أحادث نفسى:

- لا أطيق العودة إلى العذاب!

- وحتام تسدل على شرعيتنا ستار السرية؟!

- ما اخترتها إلا تشجيعا لك وإنى مستعد لإعلانها اليوم قبل الغد، أعلنيها وقتما تشائين ودون الرجوع إلى..

وخشيت ألا تمضى الأمور بالعذوبة التى مضت بها..

- ١٩ -

دعيت إلى مقابلة مدير عام العلاقات العامة. أول دعوة من نوعها منذ التحقت بالخدمة. ولماذا يدعوننى وأنا رجل عاطل؟. طالعنى بوجه متجهم أثار أعصابى وبخاصة وأنه من الجيل الذى أناصبه العداء.

- حضرتك على عبد الستار؟

- نعم.

- ما عملك؟

- لا عمل لى..

- ألا يكفى أن تستبقيك الشركة رغم أنك زائد عن الحاجة حتى تكافئها بارتكاب الجرائم فى رابعة النهار؟

فقلت بغضب وذهول معًا:

- إنى معين بحكم قانون عام فلا فضل لأحد على، ثم إننى لست مجرما فلعلك أخطأت الشخص المطلوب.

فتساءل بهدوء الظافر بفريسته:

- من إذن الذى يصحب الزميلة رجاء محمد إلى فندق «العش الجميل»؟

إنشق قلبى تحت ضربة ذهول داهم فتساءل ساخرًا:

- أرأيت؟

تمالكت نفسى بسرعة وقلت بتحد:

ـ سيادتك مخطىء، ومبلغك مخطىء أيضاً، رجاء زوجتى الشرعية!

ـ ماذا؟

ـ إليك الدليل..

قرأ الرجل الوثيقة بدهشة ثم تفحصنى باهتمام وقد لانت ملامحه وتمتم:

ـ مدهش، ألم يعلم زملاؤك بذلك؟

ـ كلا، ثمة ظروف جعلتنا نفرض سرية مؤقتة على علاقتنا!

ـ ولماذا تترددان على الفندق بتلك الحال المريبة؟

ـ المسألة بكل بساطة أننا لا نجد مكاناً!

دارى الرجل ابتسامة خفيفة وقال:

ـ أنا مضطر إلى إعلان زواجكما كتفسير ضرورى لعدم أحالتكما إلى إدارة التحقيقات!

فسألته بسخرية خفية:

ـ هل يمكن أن تدلني مشكورا على شقة؟

فأجابني ببرود:

ـ لست سمسارًا ياحضرة!

ـ ٢٠ ـ

أعلن الزواج، لا مفر. فى بيتنا أحدث دهشة ولا شىء سواها. هتفت أمى:

ـ غير معقول أن تفعل ذلك من وراء ظهورنا..

أغرقت مها ونهى فى الضحك أما أبى فقال:

ـ أنتم جيل مجنون، قدم لى سببا واحدا يبرر تصرفك المضحك..

فقلت معتذرًا:

ـ كانت السرية إكرامًا لها!

ـ أنت أحمق، وهى أيضًا حمقاء، لولا ضيق شقتنا لدعوتك للإقامة معنا.

ـ إنى مدرك لذلك كله.

فتساءل ساخرًا:

ـ ماذا يغريكم بالزواج؟، ألا تتعظون بما حصل لنا؟

فقلت عابثًا:

ـ سعادة بيتنا هى التى أغرتنى بما فعلت..

أما بيت زوجتى فقد اجتاحته حريق. استنتجت تلك من كلمات رجاء الموجزة ومن امتعاضها الدائم. تخيلت الطعنة وأثرها الدامى فى قلبى الوالدين. قالت لى:

ـ إنى أعيش فى بيت يرفضنى تمامًا.

فدفعنى قولها إلى الإلمام بمسئوليتى فقلت:

ـ تعالى إلى بيتنا مؤقتا!

ولكنها لم تنبس فقلت:

ـ سأجد الإعلان الذى أبحث عنه فى الصحف، لابد أن أعثر عنية ذات يوم..

فقالت بضيق:

ـ ومن ناحيتى فالتعليم أحب إلى من هذه الدنيا.

فقلت بإصرار:

ـ لو اقتضى الأمر أن أتعلم حرفة فسأتعلم حرفة..

* * *

وكان رفضها لفكرة الفندق قد أرجعنى إلى حيرة العذاب. ورغم أن الأمل فى الرسو على بر ـ بعد تقبلنا للهجرة ـ بات ممكنا إلا أن عذابى لم يبرد. ومضيت بها ذات مساء لا يخلو من دفء إلى هضبة الهرم. لم يبق الهلال الوليد فى السماء إلا قليلا ثم انتشر ظلام مريح. عن يميننا ويسارنا مرقت الأشباح إلى الخلاء وذابت فى الظلمة. طوقتها بذراعى بحنان وشوق ونحن نتعثر على مهل حتى توقفنا تمامًا. ملت نحو أذنها لأهمس لها بخواطرى المضطرمة ولكنها لكزتنى بكوعها قائلة فى تحذير:

ـ انظر.

• رأيت شبحًا قادمًا تبينته شرطيًا عندما وقف أمامنا. اضطربت واتجه وعيى نحو الوثيقة فى جيبى. قال الشرطى:

ـ سلام عليكم.

فقلت وأنا أجهل ما وراء سلامه:

ـ وعليكم السلام.

وصمت فانتظرت الخطوة التالية ولكنه لم ينبس ولم يتحرك فقلت:

ـ نحن نشم الهواء، أنا وزوجتى..

فقال بنبرة واضحة:

ـ متزوج أو غير متزوج، لا يهم..

فقلت بتحد:

ـ لسنا وحدنا، الخلاء ملىء بأمثالنا.

فقال ضاحكا:

ـ أفعل مثلهم..

زايلنى الإرتباك ففطنت إلى مقصده. دسست يدى فى جيبى مستخرجًا ورقة من ذات الخمسة والعشرين قرشًا ومددتها إليه. تناولها ثم قرأها على ضوء بطارية ثم ردها قائلا:

ـ مقامك جنيه على الأقل!

ولما ذهب قلت ضاحكا:

ـ أرخص من الفندق بما لا يقاس..

فهتفت:

ـ ياللعار!

فضممتها إلى بحرارة وأنا أقول معتذرًا:

ـ إنها ظروف استثنائية لعينة، ولسوف نضحك عليها فى القريب..

وأطلت علينا القرون من فوق الهرم وهى تضرب كفا بكف..



جنة الأطفال

ـ بابا..

ـ نعم..

ـ أنا وصاحبتى نادية دائما مع بعض..

ـ طبعا ياحبيبتى فهى صاحبتك.

ـ فى الفصل،فى الفسحة، وساعة الأكل..

ـ شئ لطيف وهى جميلة ومؤدبة.

ـ لكن فى درس الدين أدخل أنا فى حجرة وتدخل هى فى حجرة أخرى؟

لحظ الأم فرآها تبتسم رغم أنشغالها بتطريز مفرش فقال وهو يبتسم:

ـ هذا في درس الدين فقط..

ـ لم يابابا؟

ـ لأنك لك دين وهى لها دين آخر.

ـ كيف يابابا؟

ـ أنت مسلمة وهى مسيحية.

ـ لم يابابا؟

ـ أنت صغيرة ،وسوف تفهمين فيما بعد.

ـ أنا كبيرة يابابا.

ـ بل صغيرة ياحبيبتى..

ـ لم أنا مسلمة؟

عليه أن يكون واسع الصدر وأن يكون حذرا ولايكفر بالتربية الحديثة عند أول تجربة. قال:

ـ بابا مسلم وماما مسلمة ولذلك فأنت مسلمة.

ـ ونادية؟

ـ باباها مسيحى وأمها مسيحية ولذلك فهى مسيحية.

ـ هل لأن باباها يلبس نظارة؟

ـ كلا لادخل للنظارة فى ذلك، ولكن لأن جدها كان مسيحيا كذلك.. وقرر أن يتابع سلسلة الأجداد إلى مالانهاية حتى تضجر وتتحول إلى موضوع آخر ولكنها سألت:

ـ من أحسن؟

وتفكر قليلا ثم قال:

ـ المسلمة حسنة والمسيحية حسنة..

ـ ضرورى واحدة أحسن؟

ـ هذه حسنة وتلك حسنة.

ـ هل أعمل مسيحية لنبقى معا دائما؟

ـ كلا ياحبيبتى، هذا غير ممكن، كل واحدة تظل كباباها وماماها..

ـ ولكن لم؟

حق إن التربية الحديثة طاغية!.. وسألها:

ـ ألا تنتظرين حتى تكبرى

ـ لا يابابا..

ـ حسن، أنت تعرفين الموضة، واحدة تحب موضة وواحدة تفضل موضة، وكونك مسلمة هو آخر موضة، لذلك يجب أن تبقى مسلمة..

ـ يعنى نادية موضة قديمة؟

الله يقطعك أنت ونادية فى يوم واحد. الظاهر أنه يخطئ رغم الحذر. وأنه يدفع بلا رحمة إلى عنق زجاجة. وقال:

ـ المسألة مسألة أذواق ولكن يجب أن تبقى كل واحدة كباباها وماماها..

ـ هل أقول لها إنها موضة قديمة وأننى موضة جديدة؟

فبادرها:

ـ كل دين حسن، المسلمة تعبد الله والمسيحية تعبد الله...

ـ ولم تعبده هى فى حجرة وأعبده أنا فى حجرة؟

ـ هنا يعبد بطريقة وهناك يعبد بطريقة..

ـ ومالفرق يابابا؟

ـ ستعرفينه فى العام القادم أو الذى يليه، وكفاية أن تعرفى الآن أن المسلمة تعبد الله والمسيحية تعبد الله.

ـ ومن هو الله يابابا؟

وأخذ. وفكر مليا. ثم سأل مستزيدا من الهدنة:

ـ ماذا قالت أبلة فى المدرسة؟

ـ تقرأ السورة وتعلمنا الصلاة ولكنى لاأعرف. فمن هو الله يابابا؟

فتفكر وهو يبتسم ابتسامة غامضة وقال:

ـ هو خلق الدنيا كلها.

ـ كلها؟

ـ كلها.

ـ مامعنى خالق يابابا؟

ـ يعنى أنه صنع كل شئ.

ـ كيف يابابا؟

ـ بقدرة عظيمة..

ـ وأين يعيش؟

ـ فى الدنيا كلها..

ـ وقبل الدنيا؟

ـ فوق..

ـ فى السماء؟

ـ نعم.

ـ أريد أن أراه.

ـ غير ممكن.

ـ ولو فى التليفزيون؟

ـ غير ممكن أيضا

ـ ألم يره أحد؟

ـ كلا..

ـ وكيف عرفت أنه فوق؟

ـ هو كذلك.

ـ من عرف أنه فوق؟

ـ الأنبياء.

ـ الأنبياء؟

ـ نعم... مثل سيدنا محمد..

ـ وكيف يابابا؟

ـ بقدرة خاصة به؟

ـ عيناه قويتان؟

ـ نعم.

ـ لم يابابا؟

ـ الله خلقه كذلك.

ـ لم يابابا؟

وأجاب وهو يروض نفاد صبره:

ـ هو حر يفعل مايشاء..

ـ وكيف رآه؟

ـ عظيم جدا، قوى جدا، قادر على كل شىء..

ـ مثلك يابابا؟

فأجاب وهو يدارى ضحكة:

ـ لامثيل له.

ـ ولم يعيش فوق؟

ـ الأرض لاتسعه ولكنه يرى كل شئ.

وسرحت قليلا ثم قالت:

ـ ولكن نادية قالت لى إنه عاش على الأرض.

ـ لأنه يرى كل مكان فكأنه يعيش فى كل مكان!

ـ وقالت إن الناس قتلوه!؟

ـ ولكنه حى لايموت.

ـ نادية قالت إنهم قتلوه..



ـ كلا ياحبيبتى، ظنوا أنهم قتلوه ولكنه حى لايموت.

ـ وجدًى حى أيضا؟

ـ جدك مات.

ـ هل قتله الناس؟

ـ كلا، مات وحده..

ـ كيف؟

ـ مرض ثم مات..

ـ وأختى ستموت لأنها مريضة؟

وقطب قائلا وهو يلحظ حركة احتجاج آتية من ناحية الأم:

ـ كلا.. ستشفى إن شاء الله.

ـ ولم مات جدى؟

ـ مرض وهو كبير..

ـ وأنت مرضت وأنت كبير فلم لم تمت؟

ونهرتها أمها فنقلت عينيها بينهما فى حيرة، وقال هو:

ـ نموت إذا أراد الله لنا الموت.

ـ ولم يريد الله أن نموت؟

ـ هو حر يفعل مايشاء.

ـ والموت حلو؟

ـ كلا ياعزيزتي..

ـ ولم يريد الله شيئا غير حلو؟

ـ هو حلو مادام الله يريده لنا.

ـ ولكنك قلت إنه غير حلو.

ـ أخطأت ياحبيبتي..

ـ ولم زعلت ماما لما قلت إنك تموت!

ولأن الله لم يرد ذلك بعد.

ـ ولم يريده يابابا؟

ـ هو يأتي بنا إلى هنا ثم يذهب بنا.

ـ لم يابابا!

ـ لنعمل أشياء جميلة هنا قبل أن تذهب.

ـ ولم لانبقى؟

ـ لاتتسع الدنيا للناس إذا بقوا.

ـ ونترك الأشياء الجميلة؟

ـ سنذهب إلى أشياء أجمل منها.

ـ أين؟

ـ فوق.

ـ عند الله؟

ـ نعم.

ـ ونراه؟.

ـ نعم.

ـ وهل هذا حلو؟

ـ طبعا.

ـ إذن يجب أن نذهب؟

ـ ولكننا لم نفعل أشياء جميلة بعد.

ـ وجدى فعل؟

ـ نعم..

ـ ماذا فعل؟

ـ بنى بيتا وزرع حديقة..

ـ وتوتو ابن خالى ماذا فعل؟

وتجهم وجهه لحظة، واسترق إلى الأم نظرة مشفقة، ثم قال:

ـ هو أيضا بنى بيتا صغيرا قبل أن يذهب..

ـ لكن لولو جارنا يضربنى ولايفعل شيئا جميلا.

ـ ولد شقى.

ـ ولكنه لن يموت!

ـ إلا إذا أراد الله..

ـ رغم أنه لايفعل أشياء جميلة؟

ـ الكل يموت، فمن يفعل أشياء جميلة يذهب إلى الله ومن يفعل أشياء قبيحة يذهب إلى النار..

وتنهدت ثم صمتت فشعر بمدى ماحل به من إرهاق. ولم يدركم أصاب ولا كم أخطأ. وحرّك تيار الأسئلة علامات أستفهام راسبة فى أعماقه. ولكن الصغيرة مالبثت أن هتفت:

ـ أريد أن أبقى دائما مع نادية.

فنظر إليها مستطلعا فقالت:

ـ حتى فى درس الدين!

وضحك ضحكة عالية. وضحكت أمها أيضا. وقال وهو يتثاءب:

ـ لم أتصور أنه من الممكن مناقشة هذه الأسئلة على ذاك المستوى!

فقالت المرأة:

ـ ستكبر البنت يوما فتستطيع أن تدلى لها بما عندك من حقائق؟!

والتفت نحوها بحدة ليرى مدى ماينطوى عليه قولها من

صدق أو سخرية فوجد أنها قد أنهمكت مرة أخرى فى التطريز.



مطاردة

زكية إلى الحارة بعد غياب عام وعلى ذراعها

رجعت طفل رضيع. لم يشعر أحد بغيابها ولا برجوعها. ومازالت نحيلة شاحبة أو ازدادت نحولا وشحوبا، وجفت مسحة الجمال فى وجهها فلم يبق لها إلا شبابها المهجور. ونقلت عينيها بين البيوت الثلاثة التى اشتغلت بها خادمة عقب وفاة أمها سكينة الغسالة. تم ثبتت عيناها على البيت الأخير من ناحية القبو بيت المعلم عثمان بائع العصى والمظلات.

ولم يكن فقرها يسمح لها بإهدار أى وقت فأختارت أن تعمل بائعة سريحة لحلوى الأطفال مثل الملبن وبراغيث الست. وبيد أمسكت بمقطف مملوء بقراطيس الحلوى واحتضنت بالأخرى وليدها، وجعلت تنادى على الحلوى منتقلة من مكان إلى مكان ولكنها أكثرت من التواجد أمام

دكان المعلم عثمان. تعمدت كثيرا أن تسمعه صوتها أو أن تريه ذاتها. ولم يستطع أن يتجاهلها إلى الأبد فأنتهز فرصة خلو المكان وأشار إليها فذهبت إليه. تبادلا نظرة كانت من ناحيتها ثابتة وقوية، أما من ناحيته فكانت مراوغة . وسألها

ـ ايش حالك يازكية؟

فقالت بخشونة:

ـ نحن نحمد الله على أية حال.

ـ هل أنت فى حاجة إلى شئ؟

فأجابت بجرأة:

ـ ربنا هو الرازق.. ولكن هذا الطفل يريد حقه الذى شرعه الله..

ـ كلام طويل ولا معنى له، قولى باختصار إنك محتاجة..

فقالت بحدّة:

ـ بل قلت ماقصدت قوله وأنت سيد من يفهم

فصاح متوترا:

ـ أنا لاأفهم شيئا.. أبعدى عنى.. هذا جزاء من يعطف على من لا يستحق.. وتوارى فى دكانه وهو يرتجف غضبا، وواصلت هى عملها حول الدكان أو غير بعيد عنها. ولم تتزحزح عن خطها، ساعة بعد أخرى. بدت صابرة صامدة، أما الرجل فكان يفور ويرتعش وتنثال عليه الأحلام الدموية، وقال لنفسه وهو يشعر بالإرهاق يزحف على روحه «ياويلى.. ماعدت قادرا على التركيز فى عملى». وتنغص عليه عيشه. فى الطريق وفى البيت، وشعر بأنه وأسرته قد أصبحوا على كف عفريت.

وفى يوم وهو عائد إلى بيته همس لها:

ـ إذا تماديت فى شرِّك فلن يعثر على جثتك أحد..

ولكنها لم تخف ولم تتراجع وتسلت بملاعبة الطفل. ولم يعد المعلم عثمان يتحمل أكثر من ذلك، ولم يعد يطيق منظر الدنيا والبنت تحوم حول دكانه حاملة طفلها ، فخلا إلى صديقه شيخ الحارة، وكشف له عما يؤرقه، وختم حديثه بقوله:

ـ أخشى ماأخشاه أن تخلق لى فضيحة من لاشئ.

ونظر شيخ الحارة إليه طويلا دون أن يعلن أى شك فى قوله، وقال له:

ـ لو لم تكن المرأة مدعية وكاذبة لنصحتك بأن تقهر كبرياءك وتعمل بما يرضى الله.. فقال الرجل بصوت متهالك:

ـ لكنها مدعية وكاذبة.

ـ ولكن بوسعها أن تلطخك بفضيحة وسوف يصدقها الناس.

ـ إنك لن تسمح بذلك:

فتفكر الرجل مليا ثم قال:

ـ سأعمل على إقناعها بمغادرة الحارة نظير نفقة شهرية، أعتبرها صدقة، ويكون فى ذلك الحل المرضى للجميع.

فتنهد المعلم عثمان قائلا:

ـ سأفعل ماتشير به على...

واستدعى شيخ الحارة زكية فى اليوم التالى وقال لها:

ـ سأزف إليك حلاً سعيدا..

وأنهى إليها ماتم الأتفاق عليه ثم قال:



ـ ستقيمين فى سكن محترم وسأوصى بك شيخ حارتك الجديد

وساد صمت التفكير والانفعالات المبهمة. واستبطأ شيخ الحارة الاستجابة المرجوة، فتساءل:

ـ هل سمعتنى؟

فانتصب عنقها وقالت:

ـ سمعت ياشيخ حارتنا ولكنى لن أذهب:

فصاح شيخ الحارة غاضبا:

أنت مجنونه ولاشك..

ـ هذا الولد ابنه، وهذه صدقة لاأقبلها.

ـ وماذا تنوين أن تفعلى؟

ـ سأبقى الولد تحت عينيه يذكِّره دائما بجريمته..

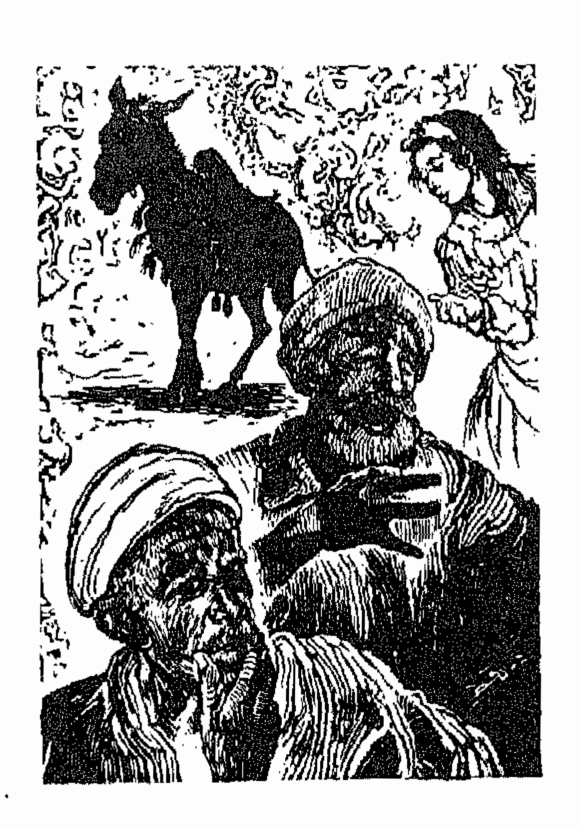
وواصلت زكية حياتها اليومية، تبيع الحلوى وترعى وليدها، وتجول هنا وهناك حول الدكان. وكان المعلم عثمان يتردى أكثر وأكثر فى تعاسة خفية، أما غضبه فيزداد سوادا

وحرارة. ولعله لأول مرة فى حياته يفكر فى القتل.

ولكن الذى بدر منه شئ آخر فقد مضى فى عز وقت العمل إلى شيخ الحارة منهار الإرادة تماما. وأمسك بيده وكأنه يستغيث به وهتف:

ـ سأتزوج واعترف بالوليد، أما السكن فليكن فى حارة أخرى.. فقال شيخ الحارة بيقين

ـ هذه المرأة لن ترجع عما تريد خطوة واحدة.



السهم

وكان أعجب ماأسفر عنه البحث الأولى أن المعلم ُقتل بسهم أصابه فى القلب. لم يهم الكثرة ماتعنيه كلمة «سهم. ودار كلام كثير قبل أن يدرك معناه.

وقال شيخ الحارة:

السهم ينطلق من قوس.. وحامل القوس لايمكن أن يكون بعيداً.. لاشك أن كثيرين منكم رأوه، وهو يرتكب جريمته.

ولكنهم بالأيمان الغليظة، أقسموا أنهم مارأوا أحدا. قال شيخ الحارة بضيق:

ـ أنا عارف أن زين البركة لم يكن محبوبا..

فقال صوت:

ـ المكروهون يفوقون الحصر، ولكننا لانشهد إلا بما نعلم.

وجال الشيخ حول المكان جولة. وفتش البيوت المطلة عليه، ولكنه لم يعثر على مايثير الريبة. وكان طوال الوقت يتساءل:

ـ من الذى استخرج السهم من جعبة التاريخ؟.. ولماذا؟..

واستمر البحث أياما دون جدوى. ولم يكشف إلا عما أصاب النفوس من بلادة وسوء ظن بالناس وعدم ثقة فى السلطة والقانون. ولما عجز أهل الظاهر عن إرواء ظمأ الناس إلى الحقيقة تطوع أهل الغيب بالكشف عن المجهول. قال ولى الله الشيخ رمضان:

ـ لاتنسوا الحصن القديم..

الناس لاينسون حصنهم القديم القائم فوق القبو، فقال الشيخ رمضان:

ـ كان فى الماضى يموج بحاملى الأقواس والسهام، ولن تعجز القدرة على ارسال روح أحدهم للدفاع عن حارتنا البائسة.

وشاع ذلك وتردد على كل لسان، وإذا بأم بسيمة الداية تؤكد إنها رأت ـ وهى راجعة من توليد امرأة فيما وراء القبو

ـ وظن شيخ الحارة إنه ربما يكون بعض المجرمين قد أتخذوا من الحصن القديم وكرًا، فأتبعاه ببعض رجال الآثار، والشرطة، ودخلوا الحصن من بابه، وجاسوا خلاله فلم يلقوا إلا الأحجار والعنكبوت.

وأعلنوا ذلك بقوة ووضوح. وحذروا الناس من تصديق الخرافات. وتبادل الناس النظر.

وتساءلوا مستنكرين: أتصدِّق هؤلاء الأفندية، ونكذب ولِّى الله الشيخ رمضان والست الطيبة أم بسيمة؟! على كثرة ماشاهدت وماسمعت فإننى لم أعرف مثيلاً لحياة جارتنا فى الفترة التى عرفت بالفترة السوداء. فترة غريبة لم تمر حارتنا بمثلها فيما سبقها وفيما تلاها.

لعل خير ماوصفت به ماقالته عنها أم فهيم الكوَّاء: إنها قد مسها سبعة شياطين. ولا أنسى يوم سألت صديقا من أهل العمر والخبرة:

ـ ماهذا الذى يجرى تحت أعيننا؟

فأجابنى الرجل بأسى:

ـ الظاهر أن الأزمنة التى تمر بالناس تمرض، وتموت مثل بقية المخلوفات. والغريب أنه لم يعد منكَر يخفى على أحد ولم

يعد أحَد يخجل من الجهر بسوء. وسمعت أم بسيمة الداية تقول ساخرة:

ـ سنرى الفاسقين عرايا تحت الشمس، ونشهد اللصوص وهم يسرقون فى حراسة العساكر.

وفى كل يوم نستسلم تاركين التيار يجرفنا، وكلما عضنا الندم هربنا إلى ذكريات الماضى الجميل. أما شيخ الحارة فلم يضن بجهد، أو هذا مانصوره، فكان يخرج من دكانه ويقطع الحارة من القبو حتى الميدان وهو يردد لدى أية مناسبة:

ـ لن يفلت من القانون منحرف. ولم يقصر خفير الدرك فى سهره على حين راح إمام الزاوية يطارد الأشباح بالمواعظ، والأمثال وحكايات السلف الصالح.

ولكن جاء مصرع المعلم زين البركة فأشعل نار الفزع والفضول. كان يوم السوق، أو يوم السلب والنهب. كما يقولون، وماجت الأرض بالمساومات، والغزل والشتائم. وتبختر زين البركة فوق حماره الحصاوى وتابعه صائحا:

ـ وسّع ياجدع.. المعلم زين البركة..



وقبيل المقهى نُدت عن المعلم صرخة مشئومة. حاول الرجل الوقوف فعجز، ثم تلوى، ثم انطرح فوق البردعة.. وهرع إليه الخلق وحملوه إلى أقرب أريكة في المقهى، وقد رسمت نقاط الدم خط مسيره. وجاء شيخ الحارة مهرولا، وجعل يفحص المعلم منكبا عليه في صمت شامل. واعتدل مكفهر الوجه وقال:

- فارقه السر الآلهى.. مات المعلم بركة..

وفجر جلال الموت في القلوب الخشوع والرهبة رغم إجماع كثيرين على كراهية المعلم.. ورأى شيخ الحارة ينظر في الوجه فقال أكثر من صوت:

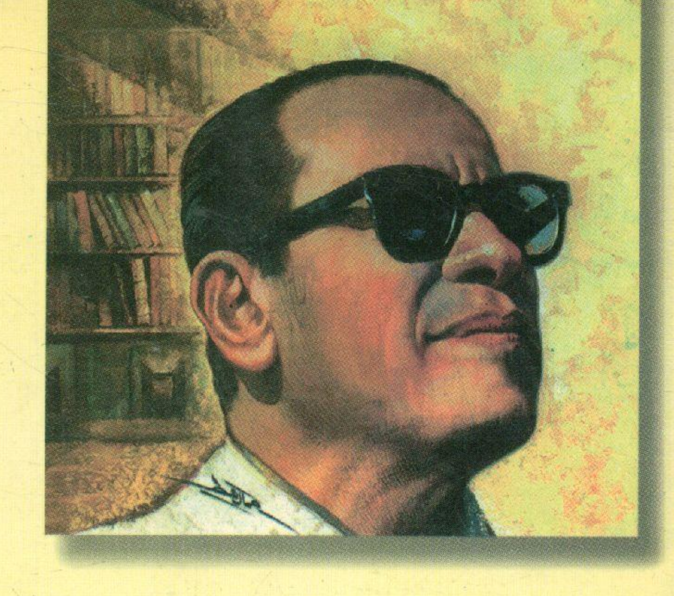
- لم يقترب منه أحد

فقال الرجل بحنق:

- ستجئ الشرطة والنيابة والطبيب الشرعى.

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

ISBN 977-01-4966-7



مكتبة الأسرة



بسعر رمزى جنيه واحد
بمناسبة

مهرجان القراءة للجميع ١٩٩٦

مطابع
الهيئة المصرية العامة للكتاب